الفصل الثالث

رِحْلَةُ تَعَلُّمٍ لِلْبَقَاءِ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ

فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَاجَهَ باك مُشْكِلَةً كَبِيرَةً وَقْتَ النَّوْمِ. كَانَتِ الْخَيْمَةُ — الَّتِي تُضِيئُهَا شَمْعَةٌ — يَمْلَؤُهَا الدِّفْءُ، بَيْنَمَا كَانَ كُلُّ شَيْءٍ حَوْلَهُمْ أَبْيَض وَمَلِيئًا بِالثَّلْجِ. وَعِنْدَمَا دَخَلَ باك الْخَيْمَةَ — ظَنًّا مِنْهُ أَنْ ذَلِكَ تَصَرُّفًا عادِيًّا — صَرَخَ بيرو وفرانسوا فِي وَجْهِهِ وَأَخَذَا يَقْذِفَانِهِ بِالْأَشْيَاءِ حَتَّى جَرَى بَعِيدًا وَهُوَ يَشْعُرُ بِالْغَضَبِ وَالْإِحْرَاجِ وَخَرَجَ مَرَّةً أُخْرَى فِي الْجَوِّ الْبَارِدِ، وَأَخَذَ الْهَوَاءُ شَدِيدُ الْبُرُودَةِ يَنْشِبُ سِهَامَهُ فِي عِظَامِهِ. فَاسْتَلْقَى باك عَلَى الثُّلُوجِ وَحَاوَلَ أَنْ يَنَامَ، وَلَكِنَّ الصَّقِيعَ جَعَلَ جَسَدَهُ كُلَّهُ يَرْتَجِفُ. وَأَخَذَ باك يَسِيرُ وَسْطَ الْخِيَمِ الْمُتَعَدِّدَةِ وَهُوَ فِي حَالَةٍ يُرْثَى لَهَا، وَلَكِنْ لَمْ يَجِدْ مَكَانًا أَقَلَّ بُرُودَةً مِنَ الْآخَرِ. حَاوَلَتِ الْكِلَابُ الْمُتَوَحِّشَةُ الَّتِي تُقَابِلُهُ هُنَا وَهُنَاكَ أَنْ تُرْهِبَهُ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يُزَمْجِرُ وَيَنْتَصِبُ شَعْرُ رَقَبَتِهِ (فَقَدْ كَانَ يَتَعَلَّمُ بِسُرْعَةٍ كَيْفَ يَرُدُّ عَلَى هُجُومِ الْكِلَابِ الْأُخْرَى)، فَيَتْرُكُونَهُ يَمْضِي فِي طَرِيقِهِ وَلَا يَعُودُونَ لِمُضَايَقَتِهِ.

ثُمَّ خَطَرَتْ لَهُ فِكْرَةٌ، وَقَرَّرَ أَنْ يَعُودَ إِلَى زُمَلَائِهِ فِي الْقَطِيعِ وَيَرَى كَيْفَ يَنَامُونَ. وَلَكِنَّهُ فُوجِئَ بِأَنَّهُمْ قَدِ اخْتَفَوْا. أَخَذَ باك يَدُورُ حَوْلَ الْمُعَسْكَرِ الْكَبِيرِ بَاحِثًا عَنْهُمْ، وَلَكِنَّهُ عَادَ دُونَ أَنْ يَجِدَهُمْ. هَلْ هُمْ دَاخِلَ الْخَيْمَةِ؟ وَلَكِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُمْكِنٍ وَإِلَّا لَمَا كَانَ طُرِدَ مِنْهَا. أَيْنَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونُوا إِذَنْ؟ أَخَذَ باك يَدُورُ حَوْلَ الْخَيْمَةِ وَهُوَ يَرْتَعِشُ وَيَجُرُّ ذَيْلَهُ خَلْفَهُ، كَانَ يَشْعُرُ بِالضَّيَاعِ وَالْوَحْدَةِ. وَفَجْأَةً انْزَاحَ الثَّلْجُ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ الْأَمَامِيَّتَيْنِ وَغَاصَتْ قَدَمَاهُ قَلِيلًا ثُمَّ شَعَرَ بِشَيْءٍ يَتَلَوَّى تَحْتَ قَدَمَيْهِ، فَقَفَزَ إِلَى الْوَرَاءِ وَأَخَذَ يُزَمْجِرُ وَقَدِ انْتَصَبَ شَعْرُهُ وَهُوَ يَشْعُرُ بِخَوْفٍ مِنَ الْمَجْهُولِ، وَلَكِنَّهُ سَمِعَ عُوَاءً وَدُودًا يُطَمْئِنُهُ، فَعَادَ مَرَّةً

أُخْرَى لِيَسْتَكْشِفَ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ. اشْتَمَّ باك نَسْمَةَ هَوَاءٍ دَافِئٍ، وَهُنَاكَ رَأَى بيلي وَهُوَ مُتَكَوِّرٌ عَلَى نَفْسِهِ تَحْتَ الثُّلُوجِ مُسْتَلْقِيًا فِي كُرَةٍ دَافِئَةٍ. أَخَذَ بيلي يَعْوِي وَيَتَلَوَّى لِيُثْبِتَ لِباك أَنَّهُ صَدِيقٌ، بَلْ وَلَعَقَ وَجْهَ باك بِلِسَانِهِ الرَّطْبِ الدَّافِئِ.

كَانَ هَذَا دَرْسًا آخَرَ تَعَلَّمَهُ باك، فَهَكَذَا يَنَامُ الْكِلَابُ وَسْطَ الثُّلُوجِ. انْتَقَى باك مَوْضِعًا، وَبَدَأَ يَعْمَلُ بِجِدٍّ لِيَحْفِرَ لِنَفْسِهِ حُفْرَةً، وَسُرْعَانَ مَا تَسَرَّبَتِ الْحَرَارَةُ مِنْ جَسَدِهِ لِتَمْلَأَ هَذَا الْمَكَانَ الصَّغِيرَ وَرَاحَ باك فِي النَّوْمِ. لَقَدْ مَرَّ بِيَوْمٍ طَوِيلٍ وَشَاقٍّ، وَلِذَا فَقَدْ غَطَّ فِي سُبَاتٍ عَمِيقٍ وَمُرِيحٍ، رَغْمَ أَنَّهُ كَانَ يُزَمْجِرُ وَيَنْبَحُ وَهُوَ يُصَارِعُ الْأَحْلَامَ السَّيِّئَةَ.

لَمْ يَفْتَحْ باك عَيْنَيْهِ حَتَّى أَيْقَظَتْهُ ضَوْضَاءُ الْمُعَسْكَرِ. فِي الْبِدَايَةِ، لَمْ يُدْرِكْ أَيْنَ هُوَ، فَقَدْ تَسَاقَطَتِ الثُّلُوجُ أَثْنَاءَ اللَّيْلِ وَغَطَّتْهُ تَمَامًا، وَكَانَتِ الْحَوَائِطُ الثَّلْجِيَّةُ تُحِيطُ بِهِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَتَضْغَطُ عَلَى جَسَدِهِ، فَشَعَرَ بِالرُّعْبِ وَتَقَلَّصَتْ عَضَلَاتُهُ وَانْتَصَبَ شَعْرُ رَقَبَتِهِ وَكَتِفَيْهِ تَمَامًا. ثُمَّ قَفَزَ باك وَهُوَ يُزَمْجِرُ بِقُوَّةٍ إِلَى الْأَعْلَى وَخَرَجَ إِلَى ضَوْءِ النَّهَارِ الَّذِي أَعْمَى عَيْنَيْهِ فِي الْبِدَايَةِ، وَتَطَايَرَتْ كُتَلُ الثُّلُوجِ مِنْ فَوْقِهِ. وَقَبْلَ أَنْ يَسْتَقِرَّ عَلَى قَدَمَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى، رَأَى باك مِنْ حَوْلِهِ الْمُعَسْكَرَ الَّذِي تُحِيطُ بِهِ الثُّلُوجُ الْبَيْضَاءُ وَتَذَكَّرَ أَيْنَ هُوَ. وَتَذَكَّرَ باك حِينَهَا مَا حَدَثَ لَهُ مُنْذُ أَنْ ذَهَبَ فِي تِلْكَ النُّزْهَةِ مَعَ مانويل وَحَتَّى حَفَرَ لِنَفْسِهِ حُفْرَةَ اللَّيْلَةَ الْمَاضِيَةَ لِيَنَامَ فِيهَا.

وَبِمُجَرَّدِ رُؤْيَةِ باك، صَاحَ فرانسوا، وَقَالَ بِصَوْتٍ عَالٍ لِبيرو: «أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّ ذَلِكَ الْكَلْبَ باك يَتَعَلَّمُ أَيَّ شَيْءٍ بِسُرْعَةٍ؟»

أَوْمَأَ بيرو وَالْجِدِّيَّةُ تَرْتَسِمُ عَلَى مَلَامِحِهِ، فَنَظَرًا لِأَنَّهُ يَعْمَلُ سَاعِيَ بَرِيدٍ لَدَى الْحُكُومَةِ الْكَنَدِيَّةِ وَيَنْقُلُ الْمُرَاسَلَاتِ الْمُهِمَّةَ، كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَحْصُلَ عَلَى أَفْضَلِ الْكِلَابِ، وَلِذَا كَانَ سَعِيدًا لِأَنَّهُ وَجَدَ باك.

انْضَمَّتْ ثَلَاثَةُ كِلَابِ هاسكي أُخْرَى إِلَى الْقَطِيعِ فِي أَقَلَّ مِنْ سَاعَةٍ، لِيُصْبِحَ عَدَدُ الْكِلَابِ تِسْعَةً. وَفِي غُضُونِ رُبُعِ سَاعَةٍ كَانَتِ السُّرُوجُ قَدْ ثُبِّتَتْ عَلَى ظُهُورِهَا جَمِيعًا، وَكَانَتْ تَنْعَطِفُ بِالْمِزْلَجَةِ فَوْقَ الطَّرِيقِ الْمُؤَدِّي إِلَى وَادِي ديا. كَانَ باك سَعِيدًا بِالِانْطِلَاقِ لِلْعَمَلِ، وَمَعَ أَنَّ الْعَمَلَ كَانَ شَاقًّا، لَمْ يَكُنْ مُنْزَعِجًا مِنْهُ. أَدْهَشَتْهُ حَمَاسَةُ الْقَطِيعِ، وَانْدَهَشَ أَكْثَرَ بِالتَّغْيِيرِ الَّذِي طَرَأَ عَلَى شَخْصِيَّتَيْ ديف وَسوليكس، فَقَدْ بَدَا وَكَأَنَّ السَّرْجَ الْمُثَبَّتَ

عَلَى ظَهْرِ كُلٍّ مِنْهُمَا قَدْ غَيَّرَهُمَا تَمَامًا، فَلَمْ يَعُودَا هَادِئَيْنِ وَمُنْعَزِلَيْنِ، بَلْ بَاتَا مُتَيَقِّظَيْنِ وَمُفْعَمَيْنِ بِالْحَيَوِيَّةِ وَالنَّشَاطِ، وَحَرِيصَيْنِ عَلَى أَدَاءِ الْعَمَلِ بِشَكْلٍ جَيِّدٍ، وَكَانَا يَغْضَبَانِ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ يُؤَخِّرُ عَمَلَهُمَا. بَدَا وَكَأَنَّ الْعَمَلَ الشَّاقَّ هُوَ الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي يُسْعِدُهُمَا.

كَانَ ديف هُوَ مَنْ يَجُرُّ الْمِزْلَجَةَ مُبَاشَرَةً، وَمِنْ أَمَامِهِ باك ثُمَّ سوليكس وَمِنْ أَمَامِهِمْ بَقِيَّةُ الْجَمْعِ فِي صَفٍّ وَاحِدٍ يَنْتَهِي بِسبيتز فِي الْمُقَدِّمَةِ، فَقَدْ كَانَ هُوَ الْقَائِدُ.

لَقَدْ وُضِعَ باك بَيْنَ ديف وَسوليكس، حَتَّى يَتَسَنَّى لَهُ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْ هَذَيْنِ الْكَلْبَيْنِ الْأَكْبَرِ مِنْهُ. وَقَدْ كَانَ باك تِلْمِيذًا نَجِيبًا، وَهُمَا كَانَا مُعَلِّمَيْنِ قَدِيرَيْنِ، لَمْ يَتْرُكَا باك يَتَمَادَى فِي أَيِّ خَطَأٍ، وَكَانَ ديف عَادِلًا وَحَكِيمًا. وَفِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ الَّتِي تَوَقَّفَتْ فِيهَا الْمِزْلَجَةُ لِفَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ تَعَثَّرَ باك فِي الْحِبَالِ وَأَخَّرَ انْطِلَاقَهَا مَرَّةً أُخْرَى، فَغَضِبَ مِنْهُ ديف وَسوليكس كَثِيرًا، وَلَكِنَّ باك اتَّخَذَ حِذْرَهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَظَلَّ بَعِيدًا عَنِ الْحِبَالِ. وَقَبْلَ أَنْ يَنْتَهِيَ الْيَوْمُ أَصْبَحَ أَدَاءُ باك رَائِعًا حَتَّى إِنَّ ديف وسوليكس كَفَّا عَنْ مُضَايَقَتِهِ، وَحَتَّى بيرو قَدْ أَعْلَى مِنْ قَدْرِهِ عِنْدَمَا رَفَعَ قَدَمَيْهِ وَتَفَحَّصَهُمَا بِعِنَايَةٍ.

كَانَتِ الرِّحْلَةُ الَّتِي قَطَعَتْهَا الْكِلَابُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ شَاقَّةً، فَقَدْ صَعِدَتْ إِلَى الْوَادِي عَبْرَ مُعَسْكَرِ شيب، مُرُورًا بِمِنْطَقَةِ سكيلز وَحِزَامِ الْأَشْجَارِ، عَبْرَ الْأَنْهَارِ الْجَلِيدِيَّةِ وَأَكْوَامِ الْجَلِيدِ الَّتِي يَصِلُ عُمْقُهَا لِمِئَاتِ الْأَقْدَامِ، وَعَبَرَتْ فَوْقَ شَقِّ تشيلكوت الَّذِي يَفْصِلُ مَا بَيْنَ الْمَاءِ الْمَالِحِ وَالْعَذْبِ وَيَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ الشَّمَالِ الْمُوحِشِ الْكَئِيبِ. لَقَدْ قَطَعَتْ مِنْطَقَةَ سِلْسِلَةِ الْبُحَيْرَاتِ الَّتِي تَمْلَأُ فُوَّهَاتِ الْبَرَاكِينِ الْخَامِلَةِ بِسُرْعَةٍ هَائِلَةٍ. فِي وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَوْقَفَ الْقَطِيعُ الْمِزْلَجَةَ عِنْدَ الْمُعَسْكَرِ الْكَبِيرِ الْمَوْجُودِ عِنْدَ بُحَيْرَةِ بينيت، حَيْثُ كَانَ الْآلَافُ مِنَ الْبَاحِثِينَ عَنِ الذَّهَبِ يَبْنُونَ سُفُنَهُمْ وَيَنْتَظِرُونَ ذَوَبَانَ الْجَلِيدِ فِي الرَّبِيعِ. حَفَرَ باك حُفْرَةً فِي الْجَلِيدِ وَنَامَ نَوْمًا عَمِيقًا، وَلَكِنْ سُرْعَانَ مَا أَيْقَظَهُ الرِّجَالُ فِي جَوْفِ الظَّلَامِ الْبَارِدِ وَوَضَعُوا عَلَى ظَهْرِهِ سَرْجًا هُوَ وَالْكِلَابِ الْأُخْرَى وَرَبَطُوهَا فِي الْمِزْلَجَةِ.

فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، اسْتَطَاعَتِ الْكِلَابُ أَنْ تَقْطَعَ مَسَافَةَ أَرْبَعِينَ مِيلًا لِأَنَّ الثَّلْجَ كَانَ قَدْ أُزِيحَ مِنْ عَلَى الطَّرِيقِ الَّذِي كَانَتْ تَسْلُكُهُ، مِمَّا جَعَلَ السَّفَرَ أَسْهَلَ. وَلَكِنْ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، كَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَشُقَّ طَرِيقَهَا بِنَفْسِهَا وَسْطَ الثُّلُوجِ الْجَدِيدَةِ، وَظَلَّتْ هَكَذَا لِعِدَّةِ أَيَّامٍ، مِمَّا كَانَ يَعْنِي بَذْلَ مَزِيدٍ مِنَ الْجُهْدِ وَالسَّفَرِ بِسُرْعَةٍ أَقَلَّ. كَانَ بيرو يَتَقَدَّمُهَا لِيُزِيحَ الثُّلُوجَ

بِحِذَائِهِ الْمُخَصَّصِ لِلسَّيْرِ عَلَى الْجَلِيدِ حَتَّى يُيَسِّرَ مُهِمَّتَهَا، أَمَّا فرانسوا فَكَانَ يَقُودُ الْمِزْلَجَةَ وَأَحْيَانًا يَتَبَادَلُ الْأَدْوَارَ مَعَ بيرو، وَلَكِنْ لَيْسَ كَثِيرًا. فَقَدْ كَانَ بيرو عَلَى عَجَلَةٍ وَكَانَ يَفْتَخِرُ بِمَعْرِفَتِهِ الْجَيِّدَةِ لِلثُّلُوجِ وَالْجَلِيدِ. وَقَدْ كَانَتِ الْمَعْرِفَةُ بِالْجَلِيدِ أَمْرًا مُهِمًّا لِلْغَايَةِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُسَافِرُونَ عَبْرَهُ لِشُهُورٍ فِي الرِّحْلَةِ الْوَاحِدَةِ. وَفِي الْخَرِيفِ تَكُونُ طَبَقَةُ الْجَلِيدِ رَفِيعَةً، وَيَخْتَفِي تَمَامًا فِي الْمَنَاطِقِ الَّتِي تَجْرِي فِيهَا الْمِيَاهُ.

وَيَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، ظَلَّ باك يَعْمَلُ بِجِدٍّ، وَكَانُوا دَائِمًا يَتَوَقَّفُونَ وَيُخَيِّمُونَ فِي الظَّلَامِ، فَتَأْكُلُ الْكِلَابُ الْأَسْمَاكَ الْمُخَصَّصَةَ لَهَا ثُمَّ تَنْدَسُّ تَحْتَ الثَّلْجِ لِتَنَامَ، ثُمَّ تَسْتَأْنِفُ جَرَّ الْمِزْلَجَةِ عَلَى الطَّرِيقِ مَرَّةً أُخْرَى لِتُشْرِقَ الشَّمْسُ عَلَيْهَا وَقَدْ قَطَعَتْ بِالْفِعْلِ عِدَّةَ أَمْيَالٍ عَلَى الطَّرِيقِ مَرَّةً أُخْرَى. كَانَ باك يَشْعُرُ بِالْجُوعِ الشَّدِيدِ، وَلَمْ تَكُنْ حِصَّتُهُ الْيَوْمِيَّةُ مِنَ الطَّعَامِ — الَّتِي تَتَكَوَّنُ مِنْ رَطْلٍ وَنِصْفٍ مِنْ سَمَكِ السَّلَمُونِ الْمُجَفَّفِ — تَكْفِيهِ. أَمَّا الْكِلَابُ الْأُخْرَى — نَظَرًا لِأَنَّهَا كَانَتْ أَقَلَّ وَزْنًا وَمُعْتَادَةً عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ — فَكَانَتْ حِصَّتُهَا الْيَوْمِيَّةُ رَطْلًا وَاحِدًا فَقَطْ مِنَ السَّمَكِ، وَاسْتَطَاعَتِ الْحِفَاظَ عَلَى لِيَاقَتِهَا.

سُرْعَانَ مَا تَخَلَّى باك عَنْ نِظَامِهِ وَهِنْدَامِهِ، وَهُوَ مَا كَانَ صِفَةً أَسَاسِيَّةً مِنْ حَيَاتِهِ فِي الْمَاضِي، فَقَدِ اعْتَادَ باك عَلَى تَنَاوُلِ طَعَامِهِ بِعِنَايَةٍ، وَلَكِنَّهُ اكْتَشَفَ أَنَّ الْكِلَابَ الْأُخْرَى — بَعْدَ أَنْ تَنْتَهِيَ مِنْ طَعَامِهَا قَبْلَهُ — تَسْرِقُ طَعَامَهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِ باك أَنْ يُدَافِعَ عَنْهُ. فَعِنْدَمَا كَانَ يَرْكُضُ وَرَاءَ اثْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ مِمَّنْ سَرَقُوا طَعَامَهُ كَانَ الْآخَرُون يَأْكُلُونَ مَا بَقِيَ مِنْهُ، وَلِذَا كَانَ باك يَتَنَاوَلُ طَعَامَهُ بِسُرْعَةٍ مِثْلَهُمْ، وَكَانَ غَالِبًا مَا يَظَلُّ جَائِعًا حَتَّى إِنَّهُ يَسْرِقُ الطَّعَامَ مِنَ الْكِلَابِ الَّتِي لَا تَأْكُلُ بِمِثْلِ سُرْعَتِهِ. وَكَانَ باك يُشَاهِدُ وَيَتَعَلَّمُ مِمَّا يُشَاهِدُهُ. وَفِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ رَأَى بايك — وَهُوَ كَلْبٌ انْضَمَّ لِلْقَطِيعِ حَدِيثًا وَكَانَ مَاهِرًا فِي السَّرِقَةِ — وَهُوَ يَسْرِقُ شَرِيحَةَ لَحْمٍ عِنْدَمَا اسْتَدَارَ بيرو، فَفَعَلَ باك مِثْلَهُ فِي الْيَوْمِ التَّالِي وَسَرَقَ قِطْعَةَ لَحْمٍ كَامِلَةً. غَضِبَ بيرو لِلْغَايَةِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَشُكَّ فِي باك، بَلِ اتَّهَمَ كَلْبًا آخَرَ اسْمُهُ داب — وَهُوَ كَلْبٌ أَخْرَقُ دَائِمًا مَا يُمْسِكُ بِهِ بيرو وَهُوَ يَسْرِقُ — وَعَاقَبَهُ.

اسْتَطَاعَ باك بِفَضْلِ الطَّعَامِ الَّذِي سَرَقَهُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى أَنْ يَبْقَى عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ فِي أَرْضِ الشَّمَالِ، وَقَدْ أَظْهَرَ ذَلِكَ شَيْئًا مُهِمًّا لِلْغَايَةِ؛ أَلَا وَهُوَ قُدْرَتُهُ عَلَى التَّكَيُّفِ مَعَ حَيَاتِهِ الْجَدِيدَةِ. كَمَا أَظْهَرَ كَذَلِكَ أَنَّ ضَمِيرَهُ لَمْ يَعُدْ يُؤَنِّبُهُ بِسَبَبِ السَّرِقَةِ. فَلَمْ يَكُنْ أَمَامَهُ خَيَارٌ

آخَرُ فِي هَذَا الْمَكَانِ الْبَارِدِ الْمُوحِشِ، فَهُوَ لَمْ يَسْرِقْ لِأَنَّهُ يُحِبُّ ذَلِكَ، وَلَكِنْ لِأَنَّهُ كَانَ جَائِعًا. وَكَانَ باك يَسْرِقُ بِحِرْصٍ وَفِي سِرِّيَّةٍ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ أَنْ يُعَاقَبَ عَلَى السَّرِقَةِ.

وَسُرْعَانَ مَا تَغَيَّرَ باك؛ فَقَدْ أَصْبَحَتْ عَضَلَاتُهُ صُلْبَةً مِثْلَ الْحَدِيدِ، وَكَانَ بِوُسْعِهِ أَنْ يَتَجَاهَلَ الْآلَامَ الْعَادِيَّةَ، وَكَانَ بِإِمْكَانِهِ أَنْ يَأْكُلَ أَيَّ شَيْءٍ، فَجِسْمُهُ كَانَ يُحَوِّلُ أَيَّ طَعَامٍ إِلَى طَاقَةٍ حَتَّى تَقْوَى عَضَلَاتُهُ وَتُصْبِحَ أَكْثَرَ صَلَابَةً.

كَمَا أَصْبَحَتْ حَاسَّتَا الْبَصَرِ وَالشَّمِّ لَدَيْهِ خَارِقَتَيْنِ، وَبَاتَ سَمْعُهُ حَادًّا لِدَرَجَةِ أَنَّهُ كَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْمَعَ أَكْثَرَ الْأَصْوَاتِ الْخَافِتَةِ وَهُوَ نَائِمٌ وَيَعْرِفُ مَصْدَرَهَا. وَتَعَلَّمَ باك أَيْضًا أَنْ يَأْكُلَ الثَّلْجَ بِأَسْنَانِهِ عِنْدَمَا يَتَكَوَّمُ بَيْنَ أَصَابِعِ أَقْدَامِهِ، وَعِنْدَما كَانَ يَشْعُرُ بِالْعَطَشِ وَيَجِدُ طَبَقَةَ جَلِيدٍ تُغَطِّي بِرْكَةَ مِيَاهٍ كَانَ يَقِفُ عَلَى قَدَمَيْهِ الْخَلْفِيَّتَيْنِ ثُمَّ يَنْزِلُ بِقَدَمَيْهِ الْأَمَامِيَّتَيْنِ عَلَى الْجَلِيدِ وَيُحَطِّمُهُ. بَلْ وَأَصْبَحَ بِإِمْكَانِهِ كَذَلِكَ أَنْ يَتَنَبَّأَ بِحَالَةِ الطَّقْسِ إِذَا اشْتَمَّ الْهَوَاءَ.

لَمْ يَتَعَلَّمْ باك بِالتَّجْرِبَةِ وَحْدَهَا، وَلَكِنْ تَنَبَّهَتْ بِدَاخِلِهِ غَرَائِزُ هُوَ نَفْسُهُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ أَنَهُ يَمْتَلِكُهَا. فَقَدْ شَعَرَ وَكَأَنَّ بِإِمْكَانِهِ أَنْ يَتَذَكَّرَ مَتَى كَانَتِ الْكِلَابُ الْبَرِّيَّةُ تَجْرِي فِي قُطْعَانٍ عَبْرَ الْغَابَةِ لِتَصْطَادَ طَعَامَهَا. وَعِنْدَمَا كَانَ يَتَعَارَكُ مَعَ الْكِلَابِ الْأُخْرَى، كَانَ يَشْعُرُ وَكَأَنَّ وَاحِدًا مِنْ أَسْلَافِهِ هُوَ مَنْ يَتَعَارَكُ. فَقَدِ اسْتَيْقَظَتْ بِدَاخِلِهِ تِلْكَ الْحَيَاةُ الْقَدِيمَةُ الَّتِي كَانَ أَجْدَادُهُ يَعِيشُونَهَا فِي الْمَاضِي وَالْخُدَعُ الَّتِي كَانُوا يَلْجَئُونَ إِلَيْهَا، دُونَ أَنْ يُحَاوِلَ هُوَ اسْتِعَادَتَهَا، كَمَا لَوْ أَنَّهَا كَانَتْ مَوْجُودَةً لَدَيْهِ طَوَالَ حَيَاتِهِ. وَفِي اللَّيَالِي الْبَارِدَةِ، عِنْدَمَا كَانَ باك يُشِيرُ بِأَنْفِهِ إِلَى نَجْمَةٍ مِنَ النُّجُومِ وَيَعْوِي طَوِيلًا مِثْلَ الذِّئَابِ، كَانَ يَشْعُرُ أَنَّ الصَّوْتَ الْمُنْبَعِثَ مِنْ دَاخِلِهِ هُوَ صَوْتُ أَحَدِ أَجْدَادِهِ آتٍ مِنْ خَلْفِ الْقُرُونِ الطَّوِيلَةِ، فَقَدْ بَاتَ صَوْتُهُ هُوَ صَوْتَهُمْ.

لَقَدْ تَغَيَّرَتْ حَيَاةُ باك تَغَيُّرًا كَبِيرًا، كُلُّ ذَلِكَ بِسَبَبِ أَنَّ بَعْضَ الرِّجَالِ قَدْ عَثَرُوا عَلَى مَعْدِنٍ أَصْفَرَ فِي الشَّمَالِ، وَأَنَّ مانويل مُسَاعِدَ الْبُسْتَانِيِّ كَانَ يُحِبُّ الْمُقَامَرَةَ.

الفصل الرابع

الْكَلْبُ الأَقْوَى

كَانَتْ هُنَاكَ رَغْبَةٌ دَاخِلَ باك فِي أَنْ يُصْبِحَ أَقْوَى كَلْبٍ فِي الْقَطِيعِ، وَفِي ظِلِّ ظُرُوفِ حَيَاةِ السَّفَرِ وَالتَّنَقُّلِ الصَّعْبَةِ تَزَايَدَتْ هَذِهِ الرَّغْبَةُ بِدَاخِلِهِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَلَكِنَّ باك أَبْقَى هَذَا الشُّعُورَ سِرًّا. فَقَدِ اكْتَسَبَ باك مَلَكَةً جَدِيدَةً بِالنِّسْبَةِ لَهُ هِيَ الْحِيلَةُ وَالْخُبْثُ، وَسَاعَدَتْهُ تِلْكَ الْمَلَكَةُ عَلَى أَنْ يَبْقَى هَادِئًا وَمُسَيْطِرًا عَلَى نَفْسِهِ. وَقَدْ كَانَ باك مَشْغُولًا جِدًّا بِمُحَاوَلَةِ الِاعْتِيَادِ عَلَى حَيَاتِهِ الْجَدِيدَةِ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يُفَكِّرْ فِي الرَّاحَةِ. وَكَانَ لَا يَبْدَأُ بِالْعِرَاكِ مَعَ أَيِّ كَلْبٍ آخَرَ وَكَانَ يُحَاوِلُ دَائِمًا أَنْ يَتَجَنَّبَ الْعِرَاكَ إِنْ أَمْكَنَ. وَمَعَ أَنَّ باك وَسبيتز لَمْ يُحِبَّا بَعْضَهُمَا، وَكَانَ ذَلِكَ الشُّعُورُ يَتَزَايَدُ كُلَّ يَوْمٍ، لَمْ يُظْهِرْ باك ذَلِكَ أَبَدًا.

وَعَلَى النَّقِيضِ، كَانَ سبيتز لَا يُفَوِّتُ فُرْصَةً دُونَ أَنْ يُكَشِّرَ عَنْ أَنْيَابِهِ، رُبَّمَا لِأَنَّهُ كَانَ يَشْعُرُ بِأَنَّ باك يُمْكِنُ أَنْ يَأْخُذَ مَكَانَهُ قَائِدًا لِلْقَطِيعِ. وَكَانَ يُحَاوِلُ دَائِمًا أَنْ يُرْهِبَ باك وَأَنْ يَبْدَأَ شِجَارًا لَا يَنْتَهِي إِلَّا بِاسْتِسْلَامِ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَهُرُوبِهِ.

كادت مُشَاجَرَةٌ كَهَذِهِ أَنْ تَحْدُثَ فِي بِدَايَةِ إِحْدَى الرِّحْلَاتِ، وَلَكِنْ وَقَعَتْ حَادِثَةٌ أَنْهَتْهَا. فَفِي نِهَايَةِ هَذَا الْيَوْمِ، خَيَّمَ الْفَرِيقُ الْمُسَافِرُ عِنْدَ شَاطِئِ بُحَيْرَةِ لوبارج، وَكَانَ الْمَكَانُ مُوحِشًا وَكَئِيبًا. فَالثُّلُوجُ الْمُنْهَمِرَةُ فِي غَزَارَةٍ وَالرِّيَاحُ الْعَاتِيَةُ الَّتِي كَانَتْ تَضْرِبُهُمْ بِسِهَامِهَا وَالظَّلَامُ الدَّامِسُ، كُلُّ ذَلِكَ أَجْبَرَهُمْ عَلَى الْبَحْثِ فِي الظَّلَامِ الَّذِي أَعْمَاهُمْ عَنْ مَكَانٍ يُخَيِّمُونَ فِيهِ. وَكَانَ ذَلِكَ الْمَكَانُ هُوَ أَسْوَأُ مَكَانٍ وَقَعَ عَلَيْهِ اخْتِيَارُهُمْ. وَكَانَ هُنَاكَ جِدَارٌ صَخْرِيٌّ خَلْفَهُمْ، وَاضْطُرَّ فرانسوا وَبيرو لِأَنْ يُشْعِلَا النَّارَ وَيَضَعَا حَقِيبَتَي النَّوْمِ فَوْقَ طَبَقَةِ الْجَلِيدِ الَّتِي تُغَطِّي الْبُحَيْرَةَ نَفْسَهَا، حَيْثُ اضْطُرَّا لِلتَّخَلُّصِ مِنَ الْخَيْمَةِ حَتَّى لَا تُشَكِّلَ عِبْئًا عَلَيْهِمَا

فِي السَّفَرِ. وَاسْتَخْدَمَا بَعْضَ أَعْوَادِ الْخَشَبِ الطَّافِيَةِ لِيُشْعِلَا النَّارَ، وَلَكِنَّهَا سُرْعَانَ مَا خَبَتْ بِسَبَبِ وُجُودِ الثُّلُوجِ وَاضْطُرَّا لِتَنَاوُلِ الْعَشَاءِ فِي الظَّلَامِ.

حَفَرَ باك حُفْرَةً لِيَنَامَ فِيهَا بِالْقُرْبِ مِنَ الْحَائِطِ الصَّخْرِيِّ، وَكَانَ يَنْعَمُ فِيهَا بِالدِّفْءِ الشَّدِيدِ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ أَنْ يَتْرُكَهَا عِنْدَمَا وَزَّعَ فرانسوا الْأَسْمَاكَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ أَنْ وَضَعَهَا فَوْقَ النَّارِ قَلِيلًا لِيَذُوبَ الثَّلْجُ مِنْ عَلَيْهَا. عِنْدَمَا انْتَهَى باك مِنْ تَنَاوُلِ طَعَامِهِ وَعَادَ إِلَى الْحُفْرَةِ لِيَنَامَ وَجَدَ كَلْبًا آخَرَ بِدَاخِلِهَا، وَعَرَفَ مِنَ الزَّمْجَرَةِ الَّتِي أَطْلَقَهَا مُحَذِّرًا إِيَّاهُ أَنَّهُ سبيتز. حَتَّى ذَلِكَ الْوَقْتِ، كَانَ باك يَتَجَنَّبُ الْعِرَاكَ مَعَ عَدُوِّهِ، وَلَكِنْ لَمْ يَعُدْ بِإِمْكَانِهِ أَنْ يَحْتَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، لَقَدْ ثَارَ الْوَحْشُ الَّذِي بِدَاخِلِهِ؛ فَقَفَزَ باك عَلَى سبيتز فِي غَضَبٍ جَامِحٍ أَذْهَلَ كُلًّا مِنْهُمَا، وَبِالْأَخَصِّ سبيتز الَّذِي كَانَ يَعْتَقِدُ مِنْ خِبْرَتِهِ مَعَ باك أَنَّهُ كَلْبٌ جَبَانٌ وَهَادِئٌ اسْتَطَاعَ أَنْ يُحَافِظَ عَلَى مَرْكَزِهِ بَيْنَ الْكِلَابِ الْأُخْرَى فَقَطْ بِفَضْلِ وَزْنِهِ وَحَجْمِهِ الْكَبِيرَيْنِ.

انْدَهَشَ فرانسوا أَيْضًا عِنْدَمَا تَدَحْرَجَ الْكَلْبَانِ خَارِجَ الْحُفْرَةِ وَهُمَا يَتَشَاجَرَانِ، وَكَانَ بِإِمْكَانِهِ أَنْ يُخَمِّنَ سَبَبَ الْمُشَاجَرَةِ.

صَاحَ فرانسوا إِلَى باك: «آاااهِ! اضْرِبْهُ، اضْرِبْ هَذَا اللِّصَّ الْحَقِيرَ!»

وَكَانَ سبيتز عَلَى الْقَدْرِ نَفْسِهِ مِنَ الِاسْتِعْدَادِ للقتال، فَقَدْ كَانَ يَصِيحُ فِي غَضَبٍ وَحَمَاسَةٍ وَهُوَ يُحَوِّمُ إِلَى الْأَمَامِ وَالْخَلْفِ مُنْتَظِرًا اللَّحْظَةَ الْمُنَاسِبَةَ لِيَنْقَضَّ عَلَى باك. وَكَانَ باك مُتَشَوِّقًا أَيْضًا لِلْمَعْرَكَةِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ حَذِرًا كَذَلِكَ وَهُوَ يُحَوِّمُ إِلَى الْأَمَامِ وَالْخَلْفِ، وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ حَدَثَ شَيْءٌ غَيْرُ مُتَوَقَّعٍ جَعَلَهُمَا يُؤَجِّلَانِ الْمَعْرَكَةَ.

فَقَدْ سَمِعُوا فَجْأَةً صِيَاحَ بيرو وَأَصْوَاتَ نُبَاحٍ هَادِرَةً. لَقَدِ امْتَلَأَ الْمُعَسْكَرُ فَجْأَةً بِحَيَوَانَاتٍ غَرِيبَةٍ، خَمْسِينَ أَوْ سِتِّينَ كَلْبًا مِنْ كِلَابِ الهاسكي الَّتِي كَانَتْ تَتَضَوَّرُ جُوعًا، وَالَّتِي الْتَقَطَتْ رَائِحَةَ الْمُعَسْكَرِ مِنْ قَرْيَةٍ مُجَاوِرَةٍ. تَسَلَّلَتْ هَذِهِ الْكِلَابُ عِنْدَمَا كَانَ باك وسبيتز يَتَعَارَكَانِ، وَعِنْدَمَا قَفَزَ الرَّجُلَانِ وَسْطَ هَذِهِ الْكِلَابِ الْجَامِحَةِ، كَشَّرَتْ عَنْ أَنْيَابِهَا وَهَاجَمَتْهُمَا. لَقَدْ أَثَارَتْ رَائِحَةُ الطَّعَامِ جُنُونَهَا، وَوَجَدَ بيرو أَحَدَهَا يَأْكُلُ مِنَ الصُّنْدُوقِ الَّذِي يُخَزِّنَانِ فِيهِ كُلَّ الطَّعَامِ. فَطَارَدَهُ بيرو وَأَبْعَدَهُ عَنِ الصُّنْدُوقِ، وَلَكِنَّ الصُّنْدُوقَ وَقَعَ

عَلَى الْأَرْضِ وَسَارَعَتِ الْعَدِيدُ مِنَ الْكِلَابِ الْجَامِحَةِ لِلْوُصُولِ إِلَى الْخُبْزِ وَاللَّحْمِ، وَكَانَتْ تَنْبَحُ وَتَعْوِي وَبيرو وَفرانسوا يُحَاوِلَانِ إِبْعَادَهَا عَنِ الطَّعَامِ.

وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ خَرَجَتْ كِلَابُ الْمُعَسْكَرِ الَّتِي تَجُرُّ الْمِزْلَجَةَ مِنَ الْحُفَرِ الَّتِي تَنَامُ فِيهَا وَهِيَ تَعْتَرِيهَا الدَّهْشَةُ، فَانْقَضَّتِ الْكِلَابُ الْجَامِحَةُ الَّتِي اجْتَاحَتِ الْمُعَسْكَرَ عَلَيْهَا. لَمْ يَرَ باك كِلَابًا مِثْلَ تِلْكَ قَطُّ فِي حَيَاتِهِ، فَقَدْ كَانَتْ نَحِيفَةً لِلْغَايَةِ لِدَرَجَةِ أَنَّهُ كَانَ بِإِمْكَانِهِ رُؤْيَةُ هَيَاكِلِهَا الْعَظْمِيَّةِ بَارِزَةً تَحْتَ جُلُودِهَا، وَكَانَ الشَّرَرُ يَنْبَعِثُ مِنْ عُيُونِهَا وَتُكَشِّرُ عَنْ أَنْيَابِهَا، لَقَدْ جَعَلَهَا الْجُوعُ مُرْعِبَةً لِلْغَايَةِ، وَكَانَ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ يَصُدُّوا هُجُومَهَا. فِي الْجَوْلَةِ الْأُولَى مِنَ الْمَعْرَكَةِ دَفَعَتِ الْكِلَابُ الْجَامِحَةُ كِلَابَ الْمُعَسْكَرِ نَحْوَ الْحَائِطِ الصَّخْرِيِّ، وَحَاوَلَ ثَلَاثَةٌ مِنْ كِلَابِ الهاسكي الِاشْتِبَاكَ مَعَ باك، وَكَانَ صَوْتُ الْمَعْرَكَةِ مُرْعِبًا، وَكَانَ بيلي يَصِيحُ، وَديف وَسوليكس يُقَاتِلَانِ بِشَجَاعَةٍ جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ، وَجو يَنْبَحُ كَوَحْشٍ هَائِجٍ، وَبايك يَرْكُضُ هُنَا وَهُنَاكَ مِنْ كَلْبٍ إِلَى آخَرَ. أَثَارَتِ الْمَعْرَكَةُ جُنُونَ باك وَحَمَاسَهُ، وَحَوَّلَتْهُ إِلَى كَلْبٍ شَرِسٍ. طَارَدَ باك أَحَدَ الْكِلَابِ وَأَبْعَدَهُ ثُمَّ شَعَرَ بِآخَرَ بِجَانِبِهِ؛ لَقَدْ كَانَ سبيتز يُحَاوِلُ أَنْ يَسْتَغِلَّ ظُرُوفَ الْمَعْرَكَةِ لِيُهَاجِمَهُ مَرَّةً أُخْرَى مِنَ الْجَانِبِ.

طَارَدَ بيرو وَفرانسوا الْكِلَابَ الْجَامِحَةَ حَتَّى أَخْرَجُوهَا مِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ الَّذِي يَخُصُّهُمَا مِنَ الْمُعَسْكَرِ، ثُمَّ انْدَفَعَا نَحْوَ كِلَابِهِمَا لِيُسَاعِدُوهَا. ابْتَعَدَتِ الْكِلَابُ الْجَامِحَةُ الَّتِي كَانَتْ تَتَضَوَّرُ جُوعًا، وَنَجَحَ باك فِي تَحْرِيرِ نَفْسِهِ. وَلَكِنْ مَا هِيَ إِلَّا لَحْظَةٌ وَاحِدَةٌ حَتَّى رَكَضَتِ الْكِلَابُ الْجَامِحَةُ نَحْوَ صُنْدُوقِ الطَّعَامِ مَرَّةً أُخْرَى وَجَرَى الرَّجُلَانِ لِيُنْقِذَاهُ، وَعِنْدَمَا أَبْعَدَا الْكِلَابَ عَنْهُ عَادَتْ لِتُهَاجِمَ الْقَطِيعَ مِنْ جَدِيدٍ. كَانَ بيلي مَرْعُوبًا لِلْغَايَةِ، فَاسْتَجْمَعَ شَجَاعَتَهُ وَقَفَزَ مِنْ فَوْقِ حَلْقَةِ الْكِلَابِ الْجَامِحَةِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِالْقَطِيعِ وَجَرَى بَعِيدًا فَوْقَ الثُّلُوجِ، وَتَبِعَهُ بايك وَداب، وَمِنْ وَرَائِهِمَا بَقِيَّةُ الْقَطِيعِ. وَبَيْنَمَا كَانَ باك يَسْتَعِدُّ لِيَقْفِزَ هُوَ الْآخَرُ لِيَلْحَقَ بِهِمْ، رَأَى بِطَرْفِ عَيْنَيْهِ سبيتز وَهُوَ يَنْدَفِعُ نَحْوَهُ لِيَطْرَحَهُ أَرْضًا، وَلَكِنَّهُ نَجَحَ فِي أَنْ يَبْتَعِدَ عَنْ طَرِيقِهِ وَيَلْحَقَ بِبَقِيَّةِ كِلَابِ الْقَطِيعِ الَّتِي كَانَتْ تَعْبُرُ الْبُحَيْرَةَ الْمُتَجَمِّدَةَ.

وَبَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ الْوَقْتِ، تَجَمَّعَتِ الْكِلَابُ التِّسْعَةُ الَّتِي كَانَتْ تَجُرُّ مِزْلَجَةَ بيرو وَفرانسوا وَبَحَثَتْ عَنْ مَأْوًى لَهَا فِي الْغَابَةِ. وَكَانَتِ الْكِلَابُ الشَّرِسَةُ قَدْ تَوَقَّفَتْ عَنْ مُطَارَدَتِهَا، وَلَكِنَّ كِلَابَ الْقَطِيعِ كَانَتْ تَشْعُرُ أَنَّهَا فِي حَالَةٍ مُزْرِيَةٍ، فَقَدْ كَانَتْ جَمِيعُهَا مُتْعَبَةً وَمُصَابَةً

بِجُرُوحٍ مِنْ أَثَرِ الْمَعْرَكَةِ. وَعِنْدَ بُزُوغِ ضَوْءِ الْفَجْرِ، عَادَتِ الْكِلَابُ إِلَى الْمُعَسْكَرِ وَلَمْ يَجِدُوا أَثَرًا لِلْكِلَابِ الشَّرِسَةِ الَّتِي اجْتَاحَتْهُ، وَلَكِنَّ بيرو وَفرانسوا كَانَا غَاضِبَيْنِ، إِذْ فَقَدَا نِصْفَ مَخْزُونِهِمَا مِنَ الطَّعَامِ. وَالْتَهَمَتْ كِلَابُ الهاسكي أَجْزَاءً مِنَ السُّرُوجِ وَغِطَاءَ الْمِزْلَجَةِ، فَلَمْ يُفْلِتْ شَيْءٌ — مَهْمَا كَانَ تَنَاوُلُهُ صَعْبًا — مِنْ بَيْنِ أَسْنَانِهَا؛ فَقَدْ أَكَلَتْ حِذَاءَ بيرو الْجِلْدِيَّ، وَجُزْءًا قَدْرُهُ قَدَمَانِ تَقْرِيبًا مِنْ طَرَفِ السَّوْطِ الَّذِي يَسْتَخْدِمُهُ فرانسوا، فَقَدْ كَانَ يَتَأَمَّلُهُ فِي حُزْنٍ عِنْدَمَا وَصَلَتْ كِلَابُ الْمِزْلَجَةِ إِلَى الْمُعَسْكَرِ.

قَالَ فرانسوا بِرِقَّةٍ: «آهِ يَا أَصْدِقَائِي، هَلْ جُرِحْتُمْ؟ رُبَّمَا جُرُوحُهُمْ أَبْلَغُ مِنْ أَنْ يَعُودُوا إِلَى جَرِّ الْمِزْلَجَةِ قَرِيبًا، مَا رَأْيُكَ يَا بيرو؟»

هَزَّ سَاعِي الْبَرِيدِ رَأْسَهُ بِالنَّفْيِ، فَلَا تَزَالُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ داوسون أَرْبَعُمِائَةِ مِيلٍ، وَلَيْسَ بِمَقْدُورِهِ أَنْ يَنْتَظِرَ. قَضَى الرَّجُلَانِ سَاعَتَيْنِ مِنَ الْعَمَلِ الشَّاقِّ الَّذِي تَخَلَّلَتْهُ الْعِبَارَاتُ الْغَاضِبَةُ لِإِصْلَاحِ السُّرُوجِ وَإِعَادَتِهَا إِلَى هَيْئَتِهَا السَّابِقَةِ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَتْ كِلَابُ الْقَطِيعِ الْمَجْرُوحَةُ الرِّحْلَةَ، وَكَانَتْ تُجَاهِدُ فِي أَلَمٍ وَهِيَ تَقْطَعُ أَصْعَبَ جُزْءٍ فِي الطَّرِيقِ، فَلَمْ يَقْطَعِ الْقَطِيعُ مِنْ قَبْلُ طَرِيقًا عَلَى هَذَا الْقَدْرِ مِنَ الصُّعُوبَةِ، إِنَّهُ أَصْعَبُ جُزْءٍ فِي الطَّرِيقِ الْمُؤَدِّي إِلَى داوسون.

كَانَ ذَلِكَ الْجُزْءُ مِنْ نَهْرِ يوكون وَالَّذِي يَمْتَدُّ لِثَلَاثِينَ مِيلًا هَائِلًا، وَلَمْ تَتَجَمَّدْ مِيَاهُهُ الْمُضْطَرِبَةُ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ جَلِيدٌ سِوَى فِي الْمَنَاطِقِ الضَّحْلَةِ بِالْقُرْبِ مِنْ حَافَتَيِ النَّهْرِ أَوْ فِي الْمَنَاطِقِ الْهَادِئَةِ الَّتِي كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَتَمَاسَكَ فِيهَا الثَّلْجُ. احْتَاجَ الْقَطِيعُ لِسِتَّةِ أَيَّامٍ مِنَ الْعَمَلِ الْمُضْنِي لِكَيْ يَقْطَعُوا الثَّلَاثِينَ مِيلًا الْمُرْهِقَةَ تِلْكَ. كُلُّ خُطْوَةٍ عَلَى الطَّرِيقِ كَانَتْ تُمَثِّلُ خَطَرًا جَدِيدًا لِلْكِلَابِ وَالرَّجُلَيْنِ، فَأَكْثَرُ مِنْ مَرَّةٍ يَتَحَطَّمُ الْجَلِيدُ الَّذِي يَمْشِي عَلَيْهِ بيرو مُتَقَدِّمًا الْفَرِيقَ وَيَقَعُ فِي الْمَاءِ. وَتُنْقِذُهُ الْعَصَا الطَّوِيلَةُ الَّتِي كَانَ يُمْسِكُ بِهَا حَتَّى تَسْقُطَ بِعَرْضِ الْحُفْرَةِ الَّتِي يَصْنَعُهَا جَسَدُهُ، وَلَكِنَّ بُرُودَةَ الْجَوِّ كَانَتْ تَزْدَادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يَقَعُ فِيهَا بيرو فِي الْمَاءِ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُشْعِلَ نَارًا حَتَّى تَجِفَّ مَلَابِسُهُ، وَإِلَّا تَجَمَّدَ جَسَدُهُ حَتَّى الْمَوْتِ.

لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ شَيْءٌ يُثِيرُ خَوْفَ بيرو أَوْ يُثَبِّطُ مِنْ عَزِيمَتِهِ، وَلِذَلِكَ اخْتَارَتْهُ الْحُكُومَةُ لِيَنْقُلَ الْمُرَاسَلَاتِ، فَقَدْ كَانَ يَتَعَرَّضُ لِكُلِّ أَنْوَاعِ الْمَخَاطِرِ، وَكَانَ يَتَقَدَّمُ الصُّفُوفَ وَسْطَ

الصَّقِيعِ وَيَعْمَلُ بِجِدٍّ مُنْذُ بُزُوغِ الْفَجْرِ وَحَتَّى هُبُوطِ الظَّلَامِ. وَكَانَ يَحُثُّ الْقَطِيعَ عَلَى السَّيْرِ بِسُرْعَةٍ عِنْدَ طَبَقَاتِ الْجَلِيدِ الرَّفِيعَةِ.

وَذَاتَ مَرَّةٍ، تَحَطَّمَتْ طَبَقَةُ الْجَلِيدِ الَّتِي كَانَتْ تَسِيرُ الْمِزْلَجَةُ فَوْقَهَا وَوَقَعَ ديف وَباك فِي الْمَاءِ، كَانَا يَتَجَمَّدَانِ عِنْدَمَا أَخْرَجَهُمَا الرَّجُلَانِ مِنَ الْمَاءِ. فَأَشْعَلَ بيرو وَفرانسوا نَارًا لِتَدْفِئَتِهِمَا. وَكَانَ الثَّلْجُ يُغَطِّي جَسَدَ الْكَلْبَيْنِ فَجَعَلَاهُمَا يَرْكُضَانِ حَوْلَ النَّارِ حَتَّى يَعْرَقَا وَيَذُوبَ الثَّلْجُ عَنْهُمَا، كَانَا يَرْكُضَانِ عَلَى مَسَافَةٍ قَرِيبَةٍ جِدًّا مِنَ النَّارِ حَتَّى إِنَّهَا لَسَعَتْ فِرَاءَهُمَا.

وَمَرَّةً أُخْرَى وَقَعَ سبيتز فِي الْمَاءِ، بَعْدَ أَنْ تَحَطَّمَ الْجَلِيدُ الَّذِي كَانَ يَسِيرُ فَوْقَهُ، وَجَرَّ كُلَّ مَنْ كَانَ وَرَاءَهُ حتَّى وَصَلَ إِلَى باك، وَلَكِنَّ باك ظَلَّ يُعَافِرُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْوَرَاءِ بِكُلِّ قُوَّتِهِ وَهُوَ يُمْسِكُ حَافَةَ الْجَلِيدِ الزَّلِقَةِ بِحَوَافِرِ قَدَمَيْهِ الْأَمَامِيَّتَيْنِ وَالْجَلِيدُ يَهْتَزُّ وَيَتَكَسَّرُ مِنْ حَوْلِهِ. وَمِن خَلْفِ باك كَانَ ديف يُحَاوِلُ بِكُلِّ قُوَّتِهِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْوَرَاءِ أَيْضًا، وَمِنْ خَلْفِ الْمِزْلَجَةِ كَانَ فرانسوا يَجْذِبُهُمَا إِلَى الْوَرَاءِ بِكُلِّ قُوَّتِهِ هُوَ الْآخَرُ.

نَجَحَ بيرو فِي الصُّعُودِ فَوْقَ جُرُفٍ صَخْرِيٍّ، وَاسْتَطَاعَ الرَّجُلَانِ أَنْ يَسْحَبَا الْكِلَابَ مِنَ الْمَاءِ مُسْتَخْدِمَيْنِ كُلَّ قِطْعَةٍ مِنَ الْحَبْلِ وَالسَّرْجِ مَجْدُولَيْنِ مَعًا. وَبِنَهَايَةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، لَمْ يَكُنِ الْفَرِيقُ قَدْ قَطَعَ سِوَى رُبْعِ مِيلٍ.

عِنْدَمَا وَصَلُوا إِلَى نَهْرٍ يُعْرَفُ بِنَهْرِ هوتالينكوا — حَيْثُ كَانَتْ طَبَقَةُ الْجَلِيدِ أَكْثَرَ سُمْكًا — كَانَ باك مُنْهَكًا، وَكَذَلِكَ بَقِيَّةُ الْكِلَابِ. وَلَكِنَّ بيرو جَعَلَهَا تَبْدَأُ رِحْلَتَهَا قَبْلَ مِيعَادِهَا الْمُعْتَادِ وَأَخَّرَ مِيعَادَ التَّوَقُّفِ حَتَّى يُعَوِّضَ الْوَقْتَ الَّذِي ضَاعَ. فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ قَطَعَ الْفَرِيقُ مَسَافَةً تُقَدَّرُ بِخَمْسَةٍ وَثَلَاثِينَ مِيلًا حَتَّى وَصَلَ إِلَى نَهْرِ سالمون الْكَبِيرِ، وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي قَطَعَ الْفَرِيقُ مَسَافَةً مُمَاثِلَةً حَتَّى بَلَغَ نَهْرَ سالمون الصَّغِيرِ. أَمَّا فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ، قَطَعَ الْفَرِيقُ أَرْبَعِينَ مِيلًا حَتَّى أَصْبَحُوا بِالْقُرْبِ مِنْ مَكَانٍ يُعْرَفُ بِاسْمِ فايف فنجرز.

لَمْ تَكُنْ أَقْدَامُ باك فِي مِثْلِ خُشُونَةِ أَقْدَامِ الْكِلَابِ الْأُخْرَى، فَقَدْ كَانَتْ أَقْدَامُهُ نَاعِمَةً مِنَ الْحَيَاةِ الرَّغْدَةِ الَّتِي كَانَ يَعِيشُهَا فِي بَيْتِ الْقَاضِي ميلر. ظَلَّ باك يَعْرُجُ طَوَالَ الْيَوْمِ، وَعِنْدَمَا يُخَيِّمُ الْفَرِيقُ كَانَ يَسْتَلْقِي وَكَأَنَّهُ نَائِمٌ. وَمَعَ أَنَّهُ كَانَ يَتَضَوَّرُ جُوعًا، لَمْ يَكُنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْهَضَ وَيَمْشِيَ حَتَّى يَحْصُلَ عَلَى حِصَّتِهِ مِنَ الْأَسْمَاكِ الَّتِي كَانَ فرانسوا يَأْتِيهِ بِهَا. وَكَانَ فرانسوا يُدَلِّكُ أَقْدَامَ باك لِنِصْفِ سَاعَةٍ كُلَّ لَيْلَةٍ بَعْدَ الْعَشَاءِ، بَلْ وَقَطَعَ

الْجُزْءَ الْعُلْوِيَّ مِنْ حِذَائِهِ الْجِلْدِيِّ لِيَصْنَعَ لِباك أَحْذِيَةً جِلْدِيَّةً صَغِيرَةً لِأَقْدَامِهِ الْأَرْبَعَةِ، وَقَدْ أَرَاحَتْهُ تِلْكَ الْأَحْذِيَةُ كَثِيرًا. وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ، اسْتَطَاعَ باك أَنْ يَنْتَزِعَ ابْتِسَامَةً مِنْ بيرو، عِنْدَمَا نَسِيَ فرانسوا الْأَحْذِيَةَ فَاسْتَلْقَى باك عَلَى ظَهْرِهِ وَأَخَذَ يُحَرِّكُ أَقْدَامَهُ فِي الْهَوَاءِ رَافِضًا أَنْ يَتَحَرَّكَ دُونَ أَنْ يَلْبَسَهَا. وَلَكِنْ بِمُرُورِ الْوَقْتِ فِي الرِّحْلَةِ، أَصْبَحَتْ أَقْدَامُ باك أَكْثَرَ صَلَابَةً مِنَ الرَّكْضِ عَلَى الطَّرِيقِ، وَتَخَلَّصَ مِنَ الْأَحْذِيَةِ الْجِلْدِيَّةِ الْبَالِيَةِ.

وَفِي صَبَاحِ أَحَدِ الْأَيَّامِ، وَبَيْنَمَا كَانَتِ الْكِلَابُ تَرْتَدِي السُّرُوجَ، حَدَثَ شَيْءٌ غَرِيبٌ مِنْ كَلْبَةٍ تُدْعَى دوللي — وَالَّتِي لَمْ تَفْعَلْ شَيْئًا كَهَذَا مِنْ قَبْلُ — إِذْ فَقَدَتْ دوللي أَعْصَابَهَا بِشَكْلٍ مُفَاجِئٍ. فِي الْبِدَايَةِ أَطْلَقَتْ دوللي عُوَاءً طَوِيلًا وَحَزِينًا أَثَارَ الرُّعْبَ فِي نُفُوسِ الْكِلَابِ الْأُخْرَى، ثُمَّ قَفَزَتْ مُتَوَجِّهَةً نَحْوَ باك، لَمْ يَكُنْ باك قَدْ رَأَى مِنْ قَبْلُ كَلْبًا يَفْعَلُ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ عَرَفَ أَنَّ هُنَاكَ شَيْئًا غَيْرَ طَبِيعِيٍّ وَرَكَضَ مُبْتَعِدًا فِي ذُعْرٍ. وَعَلَى الْفَوْرِ، بَدَأَ يَرْكُضُ بِسُرْعَةٍ وَمِنْ خَلْفِهِ دوللي الَّتِي كَانَتْ عَلَى بُعْدِ قَفْزَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهُ. كَانَ باك خَائِفًا لِلْغَايَةِ وَيَرْكُضُ بِسُرْعَةٍ حَتَّى إِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعِ اللَّحَاقَ بِهِ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ غَاضِبَةً لِلْغَايَةِ — لَيْسَ لِسَبَبٍ سِوَى أَنَّهَا مُتْعَبَةٌ — فَلَمْ يَسْتَطِعْ باك أَنْ يُفْلِتَ مِنْهَا. رَكَضَ باك عَبْرَ أَشْجَارِ الْجَزِيرَةِ، وَعَبَرَ نَهْرًا صَغِيرًا مُمْتَلِئًا بِالْجَلِيدِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى جَزِيرَةٍ أُخْرَى، وَوَاصَلَ الرَّكْضَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى جَزِيرَةٍ ثَالِثَةٍ، ثُمَّ عَادَ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى النَّهْرِ الرَّئِيسِيِّ الَّذِي حَاوَلَ أَنْ يَعْبُرَهُ فِي يَأْسٍ. وَمِنْ بَعِيدٍ، نَادَاهُ فرانسوا فَجَرَى باك نَحْوَهُ ودوللي لَا تَزَالُ عَلَى بُعْدِ قَفْزَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهُ. كَانَ باك يَلْهَثُ بِشِدَّةٍ وَوَضَعَ كُلَّ ثِقَتِهِ فِي الرَّجُلِ. وَكَانَ فرانسوا يُمْسِكُ حَبْلًا فِي يَدِهِ، وَبِمُجَرَّدِ أَنْ عَبَرَ باك مِنْ أَمَامِهِ أَوْقَعَ دوللي بِالْحَبْلِ وَحَمَلَهَا بَعِيدًا.

كَانَ باك مُنْهَكًا لِلْغَايَةِ، وَأَخَذَ يَتَرَنَّحُ أَمَامَ الْمِزْلَجَةِ وَهُوَ يَلْهَثُ لِالْتِقَاطِ أَنْفَاسِهِ وَفِي حَالَةٍ يُرْثَى لَهَا. وَكَانَتْ هَذِهِ فُرْصَةَ سبيتز؛ فَانْقَضَّ عَلَى باك وَحَاوَلَ أَنْ يَطْرَحَهُ أَرْضًا وَيَعَضَّهُ، وَكَانَ عَلَى فرانسوا أَنْ يَجْذِبَ سبيتز بَعِيدًا عَنْهُ.

قَالَ بيرو: «إِنَّ سبيتز هَذَا كَلْبٌ وَضِيعٌ، يَوْمًا مَا سَيَنَالُ مِنْ باك.»

فَرَدَّ عَلَيْهِ فرانسوا قَائِلًا: «إِنَّ باك هَذَا وَضِيعٌ أَكْثَرَ مِنْهُ، لَقَدْ كُنْتُ أُرَاقِبُهُ، وَأَنَا عَلَى يَقِينٍ أَنَّهُ سَيَفْقِدُ صَوَابَهُ فِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ، وَسَوْفَ يُمَزِّقُ سبيتز هَذَا إِرْبًا عَلَى الْجَلِيدِ.»

الفصل الخامس

الْغَرِيمَانِ

مُنْذُ آخِرِ مَرَّةٍ تَعَارَكَا فِيهَا وَالْحَرْبُ مُشْتَعِلَةٌ بَيْنَ الْكَلْبَيْنِ. فَقَدْ كَانَ الْقَلَقُ يُسَاوِرُ سبيتز — وَهُوَ الْقَائِدُ وَزَعِيمُ الْقَطِيعِ — مِنْ أَنْ يَأْخُذَ هَذَا الْكَلْبُ الْجَنُوبِيُّ الْغَرِيبُ مَكَانَهُ. وَقَدْ كَانَ باك بِالْفِعْلِ غَرِيبًا بِالنِّسْبَةِ لَهُ، فَقَدْ قَابَلَ سبيتز الْكَثِيرَ مِنَ الْكِلَابِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يُظْهِرْ أَيُّ كَلْبٍ مِنْهَا الْقُوَّةَ سَوَاءً فِي الْمُعَسْكَرِ أَوْ أَثْنَاءِ رِحْلَاتِ السَّفَرِ، كَانَتْ جَمِيعُهَا ضَعِيفَةً لِلْغَايَةِ، لَمْ تَسْتَطِعْ تَحَمُّلَ الْعَمَلِ الشَّاقِّ وَالصَّقِيعِ وَالْجُوعِ. لَكِنَّ باك كَانَ مُخْتَلِفًا؛ فَكَانَ يُضَاهِي كِلَابَ الهاسكي فِي الْقُوَّةِ وَالْوَحْشِيَّةِ وَالدَّهَاءِ، كَانَ كَلْبًا عَظِيمًا وَمَا جَعَلَهُ يُمَثِّلُ خُطُورَةً أَكْبَرَ هُوَ أَنَّ تَجْرِبَتَهُ مَعَ الرَّجُلِ ذِي السُّتْرَةِ الْحَمْرَاءِ عَلَّمَتْهُ أَنْ يَتَحَكَّمَ فِي غَضَبِهِ وَأَنْ يَكُونَ صَبُورًا. كَانَ ذَكِيًّا وَجَعَلَتْهُ قُدْرَتُهُ عَلَى الِانْتِظَارِ عَلَى الْقَدْرِ نَفْسِهِ مِنَ الدَّهَاءِ كَأَكْثَرِ الْكِلَابِ شَرَاسَةً.

كُلُّ الْكِلَابِ كَانَتْ تَعْرِفُ أَنَّ رَحَى الْحَرْبِ سَوْفَ تَدُورُ بَيْنَ باك وَسبيتز عَلَى قِيَادَةِ الْقَطِيعِ، فَقَدْ كَانَ باك يُرِيدُ تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ. لَقَدْ كَانَ يَشْعُرُ بِدَاخِلِهِ بِنَوْعٍ خَاصٍّ مِنَ الْفَخْرِ، وَهُوَ مَا شَعَرَتْ بِهِ كُلُّ الْكِلَابِ الْأُخْرَى الَّتِي كَانَتْ تُسَافِرُ مَعَهُ. كَانَ هَذَا الْفَخْرُ هُوَ الَّذِي يَدْفَعُهَا لِأَنْ تَعْمَلَ بِجِدٍّ وَأَلَّا تَسْتَسْلِمَ. وَذَلِكَ الْفَخْرُ هُوَ مَا كَانَ يُغَيِّرُ طَبِيعَةَ ديف وَسوليكس الْوَضِيعَةَ كُلَّ صَبَاحٍ وَيُحَوِّلُهُمَا مِنْ كَلْبَيْنِ مُتَجَهِّمَيْنِ وَخَبِيثَيْنِ إِلَى كَلْبَيْنِ طَمُوحَيْنِ وَمُتَحَمِّسَيْنِ، هَذَا الْفَخْرُ هُوَ الَّذِي كَانَ يَدْفَعُهُمَا إِلَى الِاسْتِمْرَارِ كُلَّ يَوْمٍ. أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِسبيتز، فَقَدْ كَانَ هَذَا الْفَخْرُ هُوَ الَّذِي يَصْنَعُ مِنْهُ قَائِدًا، وَهُوَ أَيْضًا مَا يَحْدُوهُ إِلَى مُعَاقَبَةِ كُلِّ الْكِلَابِ الَّتِي لَا تُوَاكِبُ الْقَطِيعَ أَوْ تُحَاوِلُ أَنْ تَتَهَرَّبَ مِنَ الْعَمَلِ الشَّاقِّ، وَكَانَ هَذَا الْفَخْرُ أَيْضًا هُوَ الَّذِي جَعَلَهُ يَخْشَى باك.

فَقَدْ كَانَ باك يُمَثِّلُ تَهْدِيدًا عَلَى سبيتز بِصِفَتِهِ قَائِدَ الْقَطِيعِ طَوَالَ الْوَقْتِ؛ إِذْ كَانَ يَمْنَعُهُ مِنْ مُعَاقَبَةِ الْكِلَابِ الَّتِي لَا تَعْمَلُ بِجِدٍّ. وَفِي إِحْدَى اللَّيَالِي تَسَاقَطَتِ الثُّلُوجُ بِغَزَارَةٍ، وَفِي الصَّبَاحِ لَمْ يَظْهَرْ بايك — الَّذِي لَمْ يَكُنْ يُحِبُّ الْعَمَلَ الشَّاقَّ قَطُّ — وَاخْتَبَأَ فِي حُفْرَتِهِ تَحْتَ طَبَقَةٍ مِقْدَارُهَا قَدَمٌ مِنَ الثَّلْجِ. نَادَى فرانسوا عَلَيْهِ وَأَخَذَ يَبْحَثُ عَنْهُ، فَاسْتَشَاطَ سبيتز غَضَبًا وَأَخَذَ يَطُوفُ الْمُعَسْكَرَ فِي غَضَبٍ يَشْتَمُّ الْجَلِيدَ وَيَحْفِرُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَكَانَ يُزَمْجِرُ بِصَوْتٍ عَالٍ حَتَّى إِنَّ بايك سَمِعَهُ مِنْ مَخْبَئِهِ وَكَانَ يَرْتَجِفُ مِنَ الرُّعْبِ.

وَلَكِنْ عِنْدَمَا وَجَدَهُ سبيتز وَحَاوَلَ أَنْ يُعَاقِبَهُ، قَفَزَ باك بَيْنَهُمَا وَدَفَعَ سبيتز إِلَى الْوَرَاءِ، وَكَانَ بايك يَرْتَجِفُ مِنَ الْخَوْفِ، وَلَكِنَّهُ حِينَمَا رَأَى مَا حَدَثَ شَعَرَ بِسَعَادَةٍ غَامِرَةٍ وَقَفَزَ عَلَى سبيتز. لَمْ يَعُدْ باك يَذْكُرُ مَعْنَى الْمَعْرَكَةِ الْعَادِلَةِ، فَانْقَضَّ هُوَ الْآخَرُ عَلَى سبيتز، وَلَكِنْ سُرْعَانَ مَا فَرَّقَهُمْ فرانسوا وَعَاقَبَ باك، فِي حِينِ عَاقَبَ سبيتز بايك.

كُلَّمَا اقْتَرَبَ الْقَطِيعُ أَكْثَرَ مِنْ داوسون، اسْتَمَرَّ باك فِي مَنْعِ سبيتز مِنْ مُعَاقَبَةِ الْكِلَابِ الْأُخْرَى، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِذَكَاءٍ إِذْ كَانَ يَنْتَظِرُ حِينَمَا يَبْتَعِدُ فرانسوا. بَدَأَ الْكَثِيرُ مِنَ الْكِلَابِ الْأُخْرَى — فِيمَا عَدَا ديف وَسوليكس — فِي الْخُرُوجِ عَنِ السَّيْطَرَةِ، وَلَمْ تَعُدِ الْأُمُورُ تَسِيرُ عَلَى مَا يُرَامُ؛ فَأَصْبَحَتِ الْكِلَابُ تَتَعَارَكُ طَوَالَ الْوَقْتِ وَتُسَبِّبُ الْمُشْكِلَاتِ، وَكَانَ باك هُوَ دَائِمًا السَّبَبُ، وَكَانَ يَنْجَحُ دَائِمًا فِي إِبْقَاءِ فرانسوا مَشْغُولًا. وَمِنْ جَانِبِهِ، كَانَ فرانسوا يَعْرِفُ أَنَّ مَعْرَكَةً شَرِسَةً سَتَدُورُ بَيْنَ باك وَسبيتز يَوْمًا مَا، وَكُلَّمَا سَمِعَ أَصْوَاتَ الشِّجَارِ بَيْنَ الْكِلَابِ ظَنَّ أَنَّهُمَا يَشْتَبِكَانِ مُجَدَّدًا.

وَلَكِنْ لَمْ تَسْنَحِ الْفُرْصَةُ أَمَامَهُمَا قَطُّ، وَوَصَلَ الْقَطِيعُ إِلَى داوسون بَعْدَ ظَهِيرَةِ أَحَدِ الْأَيَّامِ الْكَئِيبَةِ، وَلَا يَزَالُ الْجَمِيعُ يَتَرَقَّبُونَ الْمَعْرَكَةَ الْكُبْرَى. وَفِي داوسون، كَانَ هُنَاكَ الْكَثِيرُ مِنَ الرِّجَالِ وَعَدَدٌ لَا يُحْصَى مِنَ الْكِلَابِ كُلُّهُمْ يَعْمَلُونَ بِجِدٍّ. فَطَوَالَ النَّهَارِ كَانَتِ الْكِلَابُ تَجُرُّ الْمِزْلَجَاتِ فِي صُفُوفٍ طَوِيلَةٍ فَوْقَ الطَّرِيقِ الرَّئِيسِيِّ جِيئَةً وَذَهَابًا، وَفِي اللَّيْلِ كَانَ باك يَسْمَعُ رَنِينَ الْأَجْرَاسِ الْمُعَلَّقَةِ فِي رِقَابِ الْكِلَابِ وَهِيَ تَجْرِي. كَانَتِ الْكِلَابُ تَجُرُّ جُذُوعَ الشَّجَرِ اللَّازِمَةَ لِبِنَاءِ الْأَكْوَاخِ أَوْ إِشْعَالِ النَّارِ إِلَى الْمَنَاجِمِ، فَقَدْ كَانَتِ الْكِلَابُ تَقُومُ بِكَافَّةِ الْأَعْمَالِ الَّتِي كَانَتْ تَقُومُ بِهَا الْخُيُولُ فِي مَنْزِلِ الْقَاضِي ميلر بِوَادِي سانتا كلارا. كَانَ باك يُقَابِلُ أَحْيَانًا بَعْضَ الْكِلَابِ الْجَنُوبِيَّةِ، وَلَكِنَّ أَغْلَبَهَا كَانَ مِنْ فَصِيلَةِ الهاسكي الَّتِي تَرَبَّتْ

عَلَى هَذِهِ النَّوْعِيَّةِ مِنَ الْأَعْمَالِ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهَا. وَفِي كُلِّ لَيْلَةٍ، كَانَتِ الْكِلَابُ تُغَنِّي مَعًا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فِي التَّاسِعَةِ ثُمَّ فِي الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ ثُمَّ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ، وَكَانَتِ الْأُغْنِيَةُ غَرِيبَةً وَغَيْرَ مَأْلُوفَةٍ، وَكَانَ باك يُحِبُّ مُشَارَكَتَهُمْ.

وَقَدْ بَدَتْ تِلْكَ الْأُغْنِيَةُ الَّتِي تُغَنِّيهَا كِلَابُ الهاسكي شَدِيدَةَ الْحُزْنِ فِي ظِلِّ أَضْوَاءِ الشَّمَالِ الَّتِي تَلُوحُ فِي الْأُفُقِ، وَالَّتِي تَبْدُو مِثْلَ أَلْسِنَةِ النَّارِ وَالنُّجُومِ الْمُتَلَأْلِئَةِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ الْمُتَجَمِّدَةِ تَحْتَ طَبَقَاتِ الثَّلْجِ؛ إِذْ كَانَتِ الْأُغْنِيَةُ تَتَخَلَّلُهَا صَيْحَاتٌ طَوِيلَةٌ وَشِبْهُ بُكَاءٍ. وَكَانَتْ تِلْكَ الْأُغْنِيَةُ أُغْنِيَةً قَدِيمَةً، وَاحِدَةٌ مِنْ أُولَى الْأُغْنِيَاتِ الَّتِي كَانَتْ كِلَابُ الهاسكي الْأَوَائِلُ تُغَنِّيهَا قَبْلَ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ. وَعِنْدَمَا كَانَ باك يَشْتَرِكُ مَعَهَا فِي الْغِنَاءِ، كَانَ يَشْعُرُ بِالْغُمُوضِ وَالْخَوْفِ الَّذِي يَبُثُّهُ الظَّلَامُ وَالثُّلُوجُ.

تَرَكَ الْقَطِيعُ داوسون بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ وَانْطَلَقَ فَوْقَ طَرِيقِ يوكون عَائِدًا مِنْ حَيْثُ بَدَأَ إِلَى وَادِي ديا وَمِنْطَقَةِ سولت ووتر. كَانَ بيرو هَذِهِ الْمَرَّةَ يَحْمِلُ مُرَاسَلَاتٍ أَكْثَرَ أَهَمِّيَّةً مِنْ تِلْكَ الَّتِي جَاءَ بِهَا إِلَى داوسون. وَكَانَ يَفْتَخِرُ بِعَمَلِهِ مِثْلَمَا كَانَتْ كِلَابُهُ تَفْتَخِرُ بِعَمَلِهَا؛ لِذَا قَرَّرَ أَنَّ الْفَرِيقَ سَيَقْطَعُ الرِّحْلَةَ فِي وَقْتٍ قِيَاسِيٍّ، وَكَانَتْ لَدَيْهِ الْعَدِيدُ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَجْعَلُهُ يُصَدِّقُ أَنَّ بِإِمْكَانِ كِلَابِهِ أَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ. فَالْأُسْبُوعُ الَّذِي ارْتَاحَتْ فِيهِ الْكِلَابُ سَاعَدَهَا عَلَى أَنْ تَسْتَرِدَّ عَافِيَتَهَا وَمَلَأَهَا بِالْقُوَّةِ وَالطَّاقَةِ. كَمَا أَصْبَحَ الطَّرِيقُ — الَّذِي كَانَ أَمْلَسَ لِلْغَايَةِ فِي رِحْلَةِ الذَّهَابِ — أَكْثَرَ صَلَابَةً بِفَضْلِ مُرُورِ الْفِرَقِ الْمُسَافِرَةِ الْأُخْرَى الَّتِي جَاءَتْ بَعْدَهُمْ، كَمَا قَرَّرَتْ شُرْطَةُ الشَّمَالِ الْغَرْبِيِّ أَنْ تَتْرُكَ الْغِذَاءَ وَالْمُؤَنَ لِلرِّجَالِ وَالْكِلَابِ فِي مَوْضِعَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ عَلَى الطَّرِيقِ، وَمِنْ ثَمَّ أَصْبَحَ الْفَرِيقُ يُسَافِرُ بِحِمْلٍ أَخَفَّ مِنْ ذَلِكَ الَّذِي كَانَ يَحْمِلُهُ فِي رِحْلَةِ الذَّهَابِ.

فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ قَطَعَتِ الْكِلَابُ خَمْسِينَ مِيلًا، وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي زَادَتْ مِنْ سُرْعَتِهَا عَلَى طَرِيقِ يوكون فِي طَرِيقِهَا إِلَى مَكَانٍ اسْمُهُ بيلي. وَلَكِنَّ السَّيْرَ بِهَذِهِ السُّرْعَةِ جَلَبَ الْكَثِيرَ مِنَ الْمُشْكِلَاتِ لِفرانسوا؛ فَقَدْ كَانَ باك يُسَبِّبُ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَتَاعِبِ، وَلَمْ تَعُدِ الْكِلَابُ تَجُرُّ الْمِزْلَجَةَ كَفَرِيقٍ وَاحِدٍ، كَمَا أَنَّهَا لَمْ تَعُدْ تَخْشَى سبيتز، فَقَدْ سَرَقَ مِنْهُ بايك نِصْفَ سَمَكَةٍ فِي إِحْدَى اللَّيَالِي وَأَكَلَهَا فِي ابْتِهَاجٍ تَحْتَ حِمَايَةِ باك، وَفِي لَيْلَةٍ أُخْرَى تَعَارَكَ داب وَجو

مَعَ سبيتز وَاضْطُرَّ الْأَخِيرُ لِأَنْ يَسْتَسْلِمَ رُغْمَ أَنَّهُمَا كَانَا يَسْتَحِقَّانِ الْعِقَابَ. وَلَمْ يَكُنْ باك يَقْتَرِبُ مِنْ سبيتز دُونَ أَنْ يُزَمْجِرَ وَيَنْبَحَ مُتَوَعِّدًا، فِي الْحَقِيقَةِ، كَانَ باك يَتَصَرَّفُ كَالْمُتَنَمِّرِ.

وَنظَرًا لِأَنَّهُ لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ قَائِدٌ وَاضِحٌ لِلْقَطِيعِ، زَادَتِ الْخِلَافَاتُ بَيْنَ الْكِلَابِ وَبَعْضِهَا، وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ كَانَتْ أَصْوَاتُ النُّبَاحِ وَالزَّمْجَرَةِ تَمْلَأُ الْمُعَسْكَرَ. كَانَ ديف وَسوليكس هُمَا الْوَحِيدَانِ اللَّذَانِ بَقِيَا عَلَى حَالِهِمَا الَّذِي كَانَا عَلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ باك فِي إِثَارَةِ الْمُشْكِلَاتِ، وَلَكِنَّ الضَّجِيجَ كَانَ يُغْضِبُ الْكَلْبَيْنِ الْعَجُوزَيْنِ. وَكَانَ فرانسوا يَشْعُرُ بِالْغَضَبِ وَالْإِحْبَاطِ أَكْثَرَ مِنْهُمَا؛ إِذْ لَمْ يَعُدْ بِإِمْكَانِهِ أَنْ يُسَيْطِرَ عَلَى الْكِلَابِ. فَبِمُجَرَّدِ أَنْ يُدِيرَ لَهَا ظَهْرَهُ تَبْدَأُ فِي الشِّجَارِ مَرَّةً أُخْرَى. وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ كَانَ باك يُسَاعِدُهُ فِي السَّيْطَرَةِ عَلَى الْكِلَابِ الْأُخْرَى، بِالرُّغْمِ مِنْ أَنَّ فرانسوا كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ باك هُوَ السَّبَبُ فِي كُلِّ الْمَتَاعِبِ، وَلَكِنَّ باك كَانَ أَذْكَى مِنْ أَنْ يَدَعَ فرانسوا يُمْسِكُ بِهِ مُتَلَبِّسًا بِهَذِهِ الْجَرِيمَةِ. كَانَ باك يَعْمَلُ بِجِدٍّ فِي جَرِّ الْمِزْلَجَةِ، وَقَدْ أَصْبَحَ الْعَمَلُ مُمْتِعًا بِالنِّسْبَةِ لَهُ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَسْتَمْتِعُ أَكْثَرَ بِإِثَارَةِ الْخِلَافَاتِ بَيْنَ الْكِلَابِ وَتَعْقِيدِ كُلِّ الْأُمُورِ.

وَفِي إِحْدَى اللَّيَالِي بَعْدَ الْعَشَاءِ، عِنْدَ مَصَبِّ نَهْرِ تاهكينا، طَارَدَ داب أَرْنَبًا مِنْ أَرَانِبِ الثَّلْجِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ الْإِمْسَاكَ بِهِ، وَفِي ثَانِيَةٍ كَانَ الْقَطِيعُ كُلُّهُ يُطَارِدُ الْأَرْنَبَ مَعَهُ. وَعَلَى بُعْدِ مِائَةِ يَارْدَةٍ كَانَ هُنَاكَ مُعَسْكَرٌ لِشُرْطَةِ الشَّمَالِ الْغَرْبِيِّ فِيهِ خَمْسُونَ كَلْبًا مِنْ كِلَابِ الهاسكي الْخَاصَّةِ بِهِمْ وَالَّتِي انْضَمَّتْ جَمِيعُهَا لِلْمُطَارَدَةِ. رَكَضَ الْأَرْنَبُ عَلَى طُولِ النَّهْرِ، وَقَادَ باك الْقَطِيعَ الْمُكَوَّنَ مِنْ سِتِّينَ كَلْبًا، لَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ اللِّحَاقَ بِالْأَرْنَبِ. شَعَرَ باك وَكَأَنَّهُ صَيَّادٌ مُحْتَرِفٌ، وَقَدْ أَحَبَّ هَذَا الشُّعُورَ، بَلْ وَشَعَرَ بِالْحَيَوِيَّةِ تَتَدَفَّقُ إِلَى عُرُوقِهِ كَمَا لَمْ يَشْعُرْ بِهَا مِنْ قَبْلُ.

وَلَكِنَّ سبيتز — الَّذِي كَانَ خَبِيثًا حَتَّى فِي الْمُطَارَدَاتِ — تَرَكَ الْقَطِيعَ وَسَلَكَ طَرِيقًا مُخْتَصَرًا عَبْرَ الْغَابَةِ. لَمْ يَكُنْ باك يَعْلَمُ ذَلِكَ، وَبَيْنَمَا كَانَ يَنْعَطِفُ وَالْأَرْنَبُ لَا يَزَالُ أَمَامَهُ، رَأَى جَسَدًا آخَرَ يَنْقَضُّ مِنْ عَلَى تَلَّةٍ قَرِيبَةٍ. لَقَدْ كَانَ سبيتز، وَلَكِنَّ الْأَرْنَبَ نَجَحَ فِي الْفِرَارِ مِنْ جَانِبِهِ لِأَنَّ هَدَفَ سبيتز الْحَقِيقِيَّ كَانَ باك.

لَمْ يَصْرُخْ باك، وَلَمْ يَتَوَقَّفْ أَيْضًا، بَلِ اصْطَدَمَ بِسبيتز بِقُوَّةٍ حَتَّى وَقَعَ الِاثْنَانِ، وَتَدَحْرَجَ الِاثْنَانِ وَسْطَ الثَّلْجِ. لَكِنَّ سبيتز هَبَّ وَاقِفًا بِسُرْعَةٍ كَمَا لَوْ أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ فِي بَادِئِ الْأَمْرِ.

عَلِمَ باك عَلَى الْفَوْرِ أَنَّ هَذِهِ هِيَ لَحْظَةُ الْمَعْرَكَةِ الْمُرْتَقَبَةِ. وَقَدْ بَدَا الْأَمْرُ بِرُمَّتِهِ مَأْلُوفًا بِالنِّسْبَةِ لِباك وَهُمَا يَدُورَانِ فِي حَلْقَاتٍ حَوْلَ بَعْضِهِمَا الْبَعْضِ وَيُزَمْجِرَانِ وَأُذُنَاهُمَا نَائِمَةٌ لِلْوَرَاءِ يَنْتَظِرَانِ فُرْصَةً لِلانْقِضَاضِ. كَانَ كُلُّ شَيْءٍ سَاكِنًا فِي ضَوْءِ الْقَمَرِ، وَالثُّلُوجُ تُغَطِّي الْغَابَةَ وَالْأَرْضَ. لَمْ يَتَحَرَّكْ أَيُّ شَيْءٍ. كَانَتْ أَنْفَاسُ الْكَلْبَيْنِ تَعْلُو بِبُطْءٍ فِي الْهَوَاءِ الْبَارِدِ، وَقَدْ وَقَفَتِ الْكِلَابُ الْأُخْرَى فِي حَلْقَةٍ تُحِيطُ بِهِمَا وَقَدْ خَيَّمَ عَلَيْهَا الصَّمْتُ هِيَ الْأُخْرَى وَلَمَعَتْ عُيُونُهَا وَارْتَفَعَ صَوْتُ أَنْفَاسِهَا. لَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ جَدِيدًا أَوْ غَرِيبًا بِالنِّسْبَةِ لِباك، بَلْ شَعَرَ أَنَّهُ مِنَ الْمُفْتَرَضِ أَنْ يَكُونَ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ.

كَانَ سبيتز مُقَاتِلًا ذَكِيًّا، كَمَا كَانَتْ لَدَيْهِ الْخِبْرَةُ؛ فَبَدْءًا مِنْ سبيتسبيرجين (حَيْثُ وُلِدَ) وَعَبْرَ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ وَكَنَدَا وَالْأَرَاضِي الْقَاحِلَةِ، كَانَ قَدْ نَجَحَ فِي الْحِفَاظِ عَلَى مَكَانَتِهِ وَالْإِمْسَاكِ بِزِمَامِ السَّيْطَرَةِ أَمَامَ كُلِّ كَلْبٍ قَابَلَهُ، وَهَزَمَهُمْ جَمِيعًا.

حَاوَلَ باك أَنْ يَعَضَّ سبيتز وَلَكِنْ لَمْ يَسْتَطِعِ الْإِمْسَاكَ بِهِ، فَقَدْ كَانَ سبيتز يَصُدُّهُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ، كَمَا حَاوَلَ باك أَنْ يَنْقَضَّ عَلَى سبيتز أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، وَحَاوَلَ أَنْ يَدْفَعَ بِكَتِفِهِ كَتِفَ سبيتز وَيَطْرَحَهُ أَرْضًا. وَلَكِنْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ حَاوَلَ فِيهَا باك ذَلِكَ كَانَ سبيتز يَقْفِزُ بِرَشَاقَةٍ مُبْتَعِدًا وَيَعَضُّ باك وَهُوَ يَمُرُّ.

كَانَ الْقِتَالُ يَزْدَادُ عُنْفًا، وَكَانَتِ الْكِلَابُ الْأُخْرَى تَنْتَظِرُ لِتَقْفِزَ عَلَى الْكَلْبِ الَّذِي سَيَسْقُطُ أَوَّلًا. وَبَدَأَ باك يَشْعُرُ بِالتَّعَبِ وَبَدَأَ سبيتز يَنْدَفِعُ نَحْوَهُ. وَفِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ، أَوْشَكَ باك عَلَى الْوُقُوعِ وَتَحَرَّكَتِ الدَّائِرَةُ الَّتِي تَتَكَوَّنُ مِنْ سِتِّينَ كَلْبًا مُقْتَرِبَةً مِنْهُ، وَلَكِنَّهُ سُرْعَانَ مَا هَبَّ وَاقِفًا عَلَى قَدَمَيْهِ، فَعَادَتِ الْكِلَابُ الْأُخْرَى تَجْلِسُ وَتَنْتَظِرُ مَا سَيَحْدُثُ.

كَانَ باك يَتَمَتَّعُ بِسِمَةٍ تُمَيِّزُهُ عَنْ غَيْرِهِ بَدَأَ يَكْتَشِفُهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ؛ أَلَا وَهِيَ الْقُدْرَةُ عَلَى التَّخَيُّلِ. فَكَانَ يُقَاتِلُ بِغَرِيزَتِهِ، وَلَكِنْ كَانَ يُمْكِنُهُ الْقِتَالُ بِعَقْلِهِ أَيْضًا. فَكَانَ يَنْدَفِعُ إِلَى الْأَمَامِ، كَمَا لَوْ أَنَّهُ سَيُحَاوِلُ اسْتِخْدَامَ حِيلَةِ الْكَتِفِ الَّتِي فَشِلَتْ مِنْ قَبْلُ، وَلَكِنْ عِنْدَ آخِرِ لَحْظَةٍ انْحَنَى وَاقْتَرَبَ مِنْ سبيتز وَأَمْسَكَ بِسَاقَيْهِ الْأَمَامِيَّتَيْنِ بِأَسْنَانِهِ وَأَوْشَكَ أَنْ يَطْرَحَهُ أَرْضًا. وَكَانَ سبيتز يُكَافِحُ لِمُجَارَاتِهِ، وَرَأَى حَلْقَةَ الْكِلَابِ الصَّامِتَةِ وَالْعُيُونَ اللَّامِعَةَ تَقْتَرِبُ

مِنْهُ بِالطَّرِيقَةِ نَفْسِهَا الَّتِي رَأَى بِهَا دَوَائِرَ مُمَاثِلَةً تُغْلَقُ عَلَى كِلَابٍ أُخْرَى فِي السَّابِقِ. وَلَكِنْ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ كَانَ هُوَ الْكَلْبَ الَّذِي ضُرِبَ.

لَمْ يَكُنْ باك لِيَتَوَقَّفَ، فَقَدِ اسْتَعَدَّ لِلِانْقِضَاضَةِ الْأَخِيرَةِ، وَكَانَتْ دَائِرَةُ الْكِلَابِ قَدِ اقْتَرَبَتْ بِشِدَّةٍ حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يَشْعُرُ بِأَنْفَاسِ الْكِلَابِ عَلَى ظَهْرِهِ وَكَانَ يَرَاهُمْ خَلْفَ سبيتز عَلَى الْجَانِبَيْنِ، مُسْتَعِدِّينَ لِلِانْقِضَاضِ عَلَيْهِ وَيُرَاقِبُونَهُ. تَجَمَّدَ كُلُّ حَيَوَانٍ مِنْهُمْ فِي مَكَانِهِ وَكَأَنَّهُ تَحَوَّلَ إِلَى حَجَرٍ. كَانَ سبيتز الْوَحِيدَ الَّذِي يَنْتَفِضُ وَيَرْتَجِفُ وَهُوَ يَقِفُ مُتَرَنِّحًا عَلَى قَدَمَيْهِ الْمَجْرُوحَتَيْنِ. ثُمَّ انْقَضَّ عَلَيْهِ باك وَأَخِيرًا نَفَّذَ ضَرْبَةَ الْكَتِفِ وَأَطَاحَ بِسبيتز وَطَرَحَهُ أَرْضًا. انْقَضَّتْ عَلَيْهِ الْكِلَابُ الْأُخْرَى بِدَوْرِهَا وَهِيَ تَنْبَحُ بِصَوْتٍ عَالٍ وَتَعَضُّ سبيتز حَتَّى اضْطُرَّ لِلرَّكْضِ بَعِيدًا عَلَى الثُّلُوجِ إِلَى قَلْبِ الظَّلَامِ. وَقَفَ باك وَرَاقَبَهُ وَهُوَ يَهْرُبُ؛ لَقَدْ أَصْبَحَ الْبَطَلَ، الْكَلْبَ الْأَقْوَى، لَقَدْ هَزَمَ خَصْمَهُ، وَشَعَرَ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ يَمْنَحُهُ شُعُورًا رَائِعًا.

«أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّ باك أَكْثَرُ دَهَاءً مِنْ سبيتز.» هَكَذَا قَالَ فرانسوا فِي الصَّبَاحِ التَّالِي عِنْدَمَا وَجَدَ سبيتز مَفْقُودًا وَرَأَى لَدَى باك جُرُوحًا مِنْ آثَارِ الْقِتَالِ. فَأَخَذَ باك بِالْقُرْبِ مِنَ النَّارِ وَأَشَارَ إِلَى جُرُوحِهِ عَلَى الضَّوْءِ الْمُنْبَعِثِ مِنْهَا.

قَالَ بيرو وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الْجُرُوحِ وَآثَارِ الْعَضِّ عَلَى جَسَدِ باك: «سبيتز هَذَا يُقَاتِلُ بِضَرَاوَةٍ.»

فَأَجَابَهُ فرانسوا: «وباك هَذَا يُقَاتِلُ بِضَرَاوَةٍ أَكْثَرَ، وَالْآنَ سَنَتَقَدَّمُ بِسُرْعَةٍ أَكْبَرَ؛ فَعَدَمُ وُجُودِ سبيتز يَعْنِي عَدَمَ وُجُودِ مُشْكِلَاتٍ. أَنَا وَاثِقٌ بِهَذَا.»

بَيْنَمَا كَانَ بيرو يَحْزِمُ الْمُخَيَّمَ وَيَضَعُ الْحُمُولَةَ عَلَى الْمِزْلَجَةِ، بَدَأَ فرانسوا فِي تَجْهِيزِ الْكِلَابِ بِالسُّرُوجِ. سَارَ باك إِلَى مَكَانِ سبيتز السَّابِقِ، وَلَكِنَّ فرانسوا كَانَ قَدْ جَلَبَ سوليكس إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ عِوَضًا عَنْهُ؛ إِذْ رَأَى فرانسوا أَنَّ سوليكس سَيَكُونُ الْقَائِدَ الْأَفْضَلَ الْآنَ؛ لِأَنَّهُ الْأَكْثَرُ خِبْرَةً. وَلَكِنَّ باك قَفَزَ عَلَى سوليكس وَأَزَاحَهُ إِلَى الْوَرَاءِ وَوَقَفَ مَكَانَهُ.

صَاحَ فرانسوا وَهُوَ يَضْرِبُ فَخِذَيْهِ بِمَرَحٍ: «مَا هَذَا؟ انْظُرْ إِلَى باك، لَقَدْ طَرَدَ سبيتز وَالْآنَ يَظُنُّ أَنَّهُ يُمْكِنُهُ أَخْذَ مَكَانِهِ. اذْهَبْ، ابْتَعِدْ عَنِ الطَّرِيقِ!» صَاحَ فرانسوا عَلَى باك وَلَكِنَّ الْكَلْبَ رَفَضَ أَنْ يَتَزَحْزَحَ مِنْ مَكَانِهِ.

أَطْلَقَ فرانسوا ضِحْكَةً أَعْلَى عِنْدَمَا رَأَى مِقْدَارَ الْعِنْدِ الَّذِي يَتَمَتَّعُ بِهِ باك، وَنَادَى عَلَى بيرو وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى باك الَّذِي تَجَمَّدَ فِي مَكَانِهِ وَكَأَنَّهُ تِمْثَالٌ: «يَا بيرو، مَا هَذَا الْكَلْبُ؟»

قَالَ بيرو: «كَلْبٌ جَيِّدٌ.»

قَالَ فرانسوا: «حَسَنًا، أَخْبِرْهُ أَنْتَ أَنْ يَتَنَحَّى إِذَنْ، أَظُنُّ أَنَّهُ لَمْ يَعُدْ يُرِيدُ الِاسْتِمَاعَ إِلَيَّ.»

قَالَ بيرو وَهُوَ يَضْحَكُ: «وَلَا أَنَا أَيْضًا.»

وَفِي النِّهَايَةِ، تَعِبَ فرانسوا مِنَ الِانْتِظَارِ، فَأَمْسَكَ باك مِنْ مُؤَخِّرَةِ عُنُقِهِ — وَرُغْمَ تَذَمُّرِهِ — أَزَاحَهُ فرانسوا إِلَى الْجَانِبِ وَوَضَعَ سوليكس فِي مَكَانِ الْقَائِدِ. لَمْ يُحِبَّ سوليكس الْأَمْرَ وَأَظْهَرَ أَنَّهُ يَخَافُ مِنْ باك.

كَانَ فرانسوا قَدِ اتَّخَذَ قَرَارَهُ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا أَدَارَ ظَهْرَهُ، طَرَدَ باك سوليكس مُجَدَّدًا مِنْ مَكَانِ الْقَائِدِ، وَكَانَ سوليكس مُتَلَهِّفًا لِلتَّخَلِّي عَنْ هَذَا الْمَكَانِ، فَاسْتَشَاطَ فرانسوا غَضَبًا.

صَاحَ فرانسوا: «سَأَقُومُ بِتَأْدِيبِكَ» وَاتَّجَهَ نَحْوَ باك مُمْسِكًا بِحَبْلٍ فِي يَدِهِ.

تَذَكَّرَ باك الرَّجُلَ ذَا السُّتْرَةِ الْحَمْرَاءِ وَتَرَاجَعَ بِبُطْءٍ. لَمْ يُحَاوِلْ إِقْحَامَ نَفْسِهِ عِنْدَمَا وَضَعَ فرانسوا سوليكس فِي مَوْقِعِ الْقَائِدِ. دَارَ باك لِيَكُونَ بَعِيدًا عَنْ مُتَنَاوَلِ فرانسوا وَأَخَذَ يُزَمْجِرُ، وَكَانَتْ عَيْنَاهُ تُرَاقِبَانِ الْحَبْلَ وَهُوَ يَتَحَرَّكُ حَرَكَةً دَائِرِيَّةً حَتَّى يَسْتَطِيعَ تَفَادِيهُ إِذَا اسْتَخْدَمَهُ فرانسوا؛ فَلَقَدْ أَصْبَحَ باك حَكِيمًا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْحِبَالِ. تَابَعَ فرانسوا عَمَلَهُ وَنَادَى عَلَى باك عِنْدَمَا كَانَ مُسْتَعِدًّا لِوَضْعِهِ فِي مَكَانِهِ الْقَدِيمِ أَمَامَ ديف. تَرَاجَعَ باك خُطْوَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، فَتَبِعَهُ فرانسوا، فَتَرَاجَعَ باك مَرَّةً أُخْرَى، وَبَعْدَ عِدَّةِ مُحَاوَلَاتٍ، أَلْقَى فرانسوا الْحَبْلَ حَتَّى يُبَرْهِنَ لِباك أَنَّهُ لَنْ يَسْتَخْدِمَهُ وَلَكِنَّ باك لَمْ يَكُنْ يَنْوِي الْعَوْدَةَ إِلَى مَكَانِهِ الْقَدِيمِ. لَقَدْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ الْقَائِدَ، فَقَدِ اسْتَحَقَّ ذَلِكَ، وَلَمْ تَكُنْ أَيُّ مَكَانَةٍ أُخْرَى أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ تُسْعِدُهُ.

انْضَمَّ بيرو لِفرانسوا لِيُسَاعِدَهُ، وَظَلَّ الِاثْنَانِ يَرْكُضَانِ هُنَا وَهُنَاكَ لِمُدَّةِ سَاعَةٍ تَقْرِيبًا، فَكَانَا يُلْقِيَانِ بِالْحِبَالِ نَحْوَ باك وَلَكِنَّهُ يُرَاوِغُهَا، وَيَصْرُخَانِ فِي وَجْهِهِ، فَيَنْبَحُ فِي وَجْهَيْهِمَا وَيَحْرِصُ عَلَى الْبَقَاءِ بَعِيدًا عَنْ أَيْدِيهِمَا. لَمْ يُحَاوِلْ باك الْهُرُوبَ وَلَكِنَّهُ كَانَ يَتَرَاجَعُ وَيَدُورُ فِي أَرْجَاءِ الْمُخَيَّمِ لِيُرِيَهُمَا أَنَّهُ عِنْدَمَا يُعْطِيَانِهِ مَا يُرِيدُ سَيَعُودُ وَيُحْسِنُ التَّصَرُّفَ.

جَلَسَ فرانسوا وَحَكَّ رَأْسَهُ، بَيْنَمَا نَظَرَ بيرو إِلَى سَاعَتِهِ وَشَعَرَ بِالْغَضَبِ، فَقَدْ كَانَ الْوَقْتُ يَمُرُّ بِسُرْعَةٍ، وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَنْطَلِقُوا فِي طَرِيقِهِمْ قَبْلَ سَاعَةٍ. حَكَّ فرانسوا رَأْسَهُ مُجَدَّدًا ثُمَّ هَزَّهَا وَابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً لِبيرو الَّذِي هَزَّ كَتِفَيْهِ. فَقَدْ هُزِمَ الرَّجُلَانِ. ثُمَّ ذَهَبَ فرانسوا إِلَى سوليكس وَنَادَى عَلَى باك، فَضَحِكَ باك، كَمَا تَضْحَكُ الْكِلَابُ، وَلَكِنَّهُ بَقِيَ بَعِيدًا. أَعَادَ فرانسوا سوليكس إِلَى مَكَانِهِ الْقَدِيمِ مَرَّةً أُخْرَى، ثُمَّ نَادَى عَلَى باك ثَانِيَةً، وَمَرَّةً أُخْرَى ضَحِكَ باك وَبَقِيَ بَعِيدًا.

قَالَ بيرو: «أَلْقِ الْحَبْلَ بَعِيدًا.»

نَفَّذَ فرانسوا ذَلِكَ، فَهَرْوَلَ باك مُقْتَرِبًا يَضْحَكُ كَبَطَلٍ مُنْتَصِرٍ، وَأَخَذَ مَكَانَهُ فِي مُقَدِّمَةِ الْفَرِيقِ. رَبَطَ الرَّجُلَانِ باك إِلَى السَّرْجِ ثُمَّ حَرَّرُوا الْمِزْلَجَةَ مِنَ الثَّلْجِ. رَكَضَ الرَّجُلَانِ بِجَانِبِ الْمِزْلَجَةِ الَّتِي بَدَأَتْ تَشُقُّ طَرِيقَهَا.

لقد أَثْبَتَ باك أَنَّهُ قَائِدٌ عَظِيمٌ، بَلْ وَكَانَ أَفْضَلَ مِنْ سبيتز الَّذِي ظَنَّ فرانسوا أَنَّهُ أَفْضَلُ مَنْ رَأَى فِي حَيَاتِهِ.

لَمْ يُمَانِعْ ديف وَسوليكس التَّغْيِيرَ الَّذِي طَرَأَ عَلَى مَوْقِعِ الْقِيَادَةِ، فَلَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ يَعْنِيهِمَا. كُلُّ مَا كَانَا يُرِيدَانِهِ هُوَ الْعَمَلُ وَالْعَمَلُ الْجَادُّ. طَالَمَا لَمْ يُزْعِجْ أَحَدٌ عَمَلَهُمَا، لَمْ يَهْتَمَّا بِمَا يَحْدُثُ. إِلَّا أَنَّ بَاقِيَ الْفَرِيقِ كَانَ قَدْ أَصْبَحَ خَارِجًا عَنِ السَّيْطَرَةِ، وَحَتَّى هُمَا انْدَهَشَا مِنْ سُرْعَةِ باك فِي إِعَادَتِهِمْ لِلنِّظَامِ.

بايك، الَّذِي كَانَ مَوْقِعُهُ خَلْفَ باك، وَالَّذِي لَمْ يَكُنْ يَقُومُ بِأَيِّ عَمَلٍ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ، عُوقِبَ بِسُرْعَةٍ عَلَى عَدَمِ عَمَلِهِ بِقُوَّةٍ كَافِيَةٍ. وَقَبْلَ نِهَايَةِ الْيَوْمِ كَانَ يَجُرُّ الْمِزْلَجَةَ بِقُوَّةٍ أَكْثَرَ مِمَّا فَعَلَ فِي حَيَاتِهِ كُلِّهَا.

بَدَأَ الْفَرِيقُ كُلُّهُ يَشْعُرُ أَنَّهُ أَفْضَلُ، فَكَانُوا يَعْمَلُونَ كَفَرِيقٍ وَاحِدٍ مُجَدَّدًا. وَعِنْدَ مُنْحَدَرِ نَهْرِ رينك، أُضِيفَ كَلْبَانِ آخَرَانِ مِنْ كِلَابِ الهاسكي — هُمَا تيك وَكونا — وَقَدْ نَجَحَ باك فِي إِدْخَالِهِمَا إِلَى مَنْظُومَةِ الْعَمَلِ بِسُرْعَةٍ أَذْهَلَتْ فرانسوا.

صَاحَ فرانسوا: «لَمْ يُوجَدْ قَطُّ كَلْبٌ مِثْلُ باك! أَبَدًا! إِنَّهُ يُسَاوِي أَلْفَ دُولَارٍ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ مَا رَأْيُكَ يَا بيرو؟»